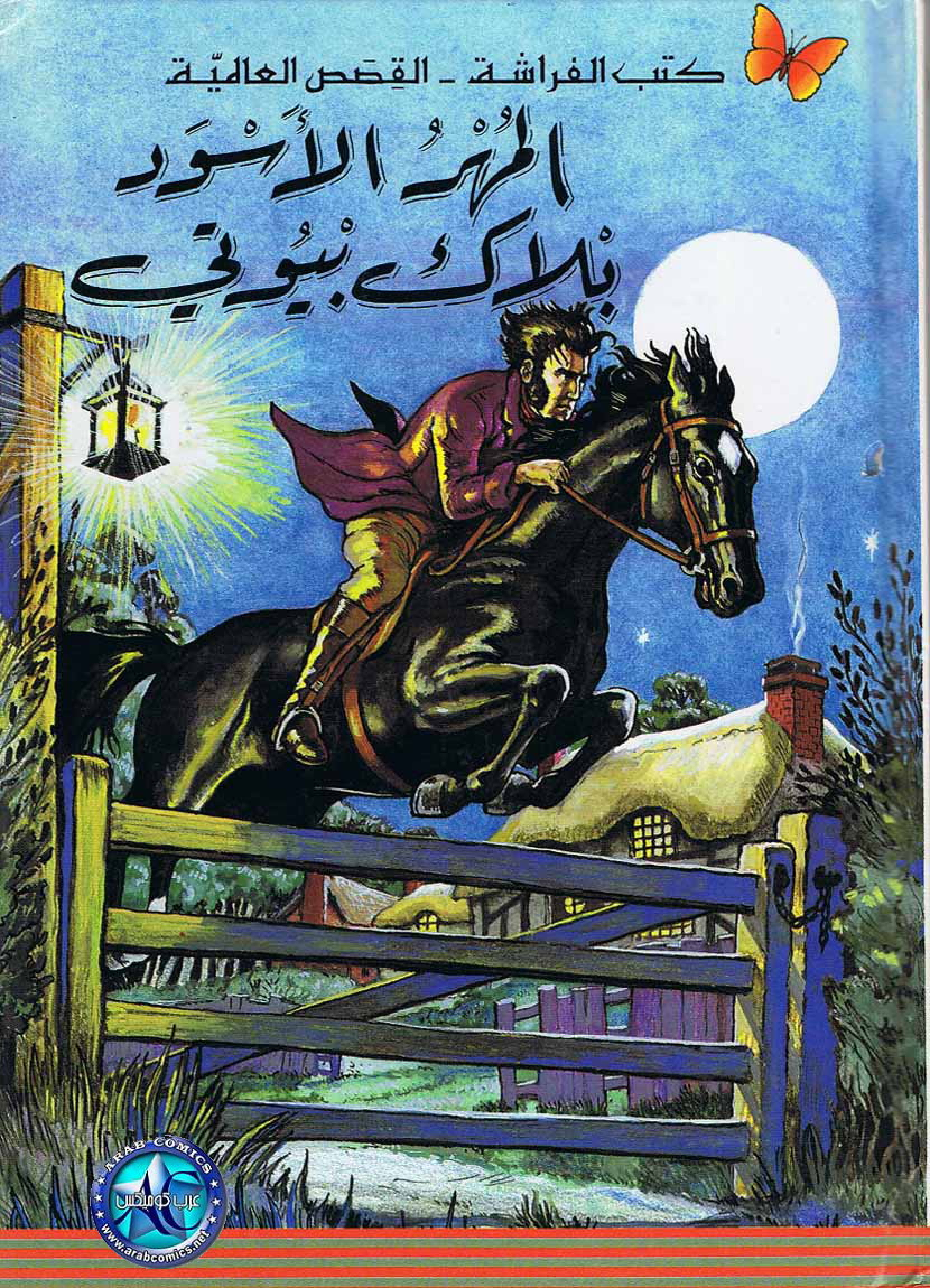

كتب الفراشة - القصص العالميّة
المُهْرُ الأَسْوَد
بْلاكْ بْيُوتي
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

كتب الفراشة - القصص العالميّة

المُهْرُ الأَسْوَد
بْلاك بْيُوتي



إعْدَاد : الدّكتور ألبير مُطْلَق
عَن قِصَّة: آنّا سِوَل



مَكتَبة لبْنَان نَاشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص. ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٦

رقم الكتاب 01 C 196823

طبع في لبنان



مقدّمة

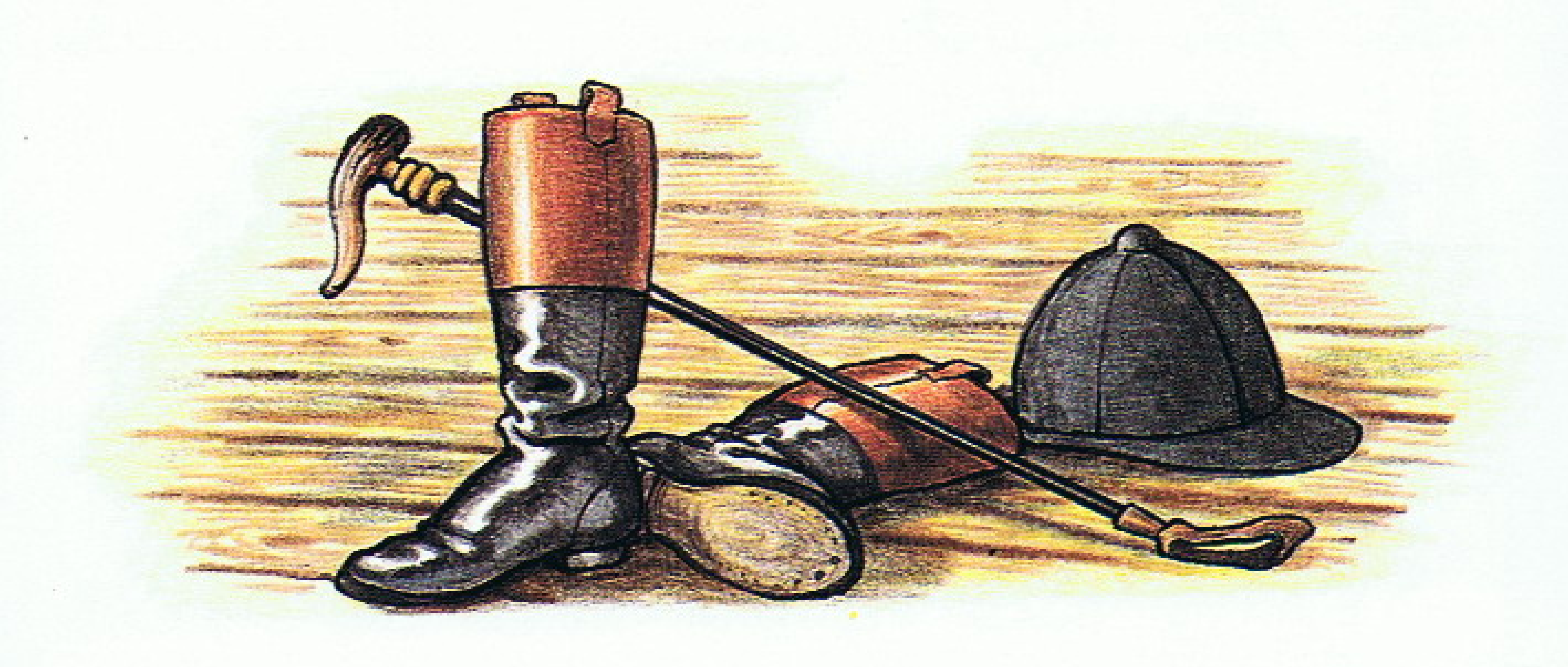
كِتابٌ مُشَوِّقٌ جِدًّا يَرْوي حِكايَةَ جَوادٍ وَديعٍ شُجاعٍ وَحِكايَةَ أَصْحابِهِ. كُتِبَ في الْعامِ ١٨٧٦ وَنُشِرَ في الْعامِ التّالي قُبَيْلَ وَفاةِ مُؤَلِّفَتِهِ آنّا سِوِل. وَلاقى عَلى الْفَوْرِ نَجاحًا باهِرًا، وَلا يَزالُ بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ قَرْنٍ عَلى تَأْليفِهِ واحِدًا مِنْ أَحَبِّ الْكُتُبِ إلى قُلوبِ الْأَحْداثِ.

دَفَعَ الْمُؤَلِّفَةَ إلى كِتابَةِ قِصَّتِها ما لَمَسَتْهُ مِنَ الْمُعامَلَةِ الْقاسِيَةِ الْجائِرَةِ الَّتي كانَتْ تَتَعَرَّضُ لَها كَثْرَةُ الْجِيادِ في ذٰلِكَ الزَّمانِ. أَرادَتْ أَنْ تُرِيَ النّاسَ ما يَتَعَرَّضُ لَهُ الْجِيادُ مِنْ ساعاتِ عَمَلٍ طَويلَةٍ، وَأَحْمالٍ ثَقيلَةٍ، وَإِسْطَبْلاتٍ قَذِرَةٍ مُنْتِنَةٍ، وَنَقْصٍ في الطَّعامِ وَقِلَّةِ عِنايَةٍ. وَفَوْقَ ذٰلِكَ، ما كانَ شائِعًا، في ذٰلِكَ الزَّمانِ، مِنِ اسْتِخْدامِ الْعِنانِ الْقَصيرِ الَّذي يُجْبِرُ الْجِيادَ عَلى أَنْ تُبْقِيَ رُؤوسَها مَرْفوعَةً، مَعَ ما في ذٰلِكَ مِنْ أَلَمٍ وَمُعاناةٍ.

لَقَدْ نَجَحَتِ الْمُؤَلِّفَةُ في سَعْيِها إلى تَحْسينِ مُعامَلَةِ الْجِيادِ نَجاحًا كَبيرًا. وَعَتِ النّاسَ إلى أَهَمِّيَّةِ الرِّفْقِ بِالْحِصانِ، وَأَسْهَمَتْ شَعْبِيَّةُ كِتابِها في إلْغاءِ الْعِنانِ الْقَصيرِ. وَشاعَ اسْتِخْدامُ الْكِتابِ كَمَرْجِعٍ لِدِراسَةِ الْعِنايَةِ بِالْخَيْلِ. بَلْ حَدَثَ في أَميرِكا أَنْ أُمِرَ رَجُلٌ سُجِنَ شَهْرًا بِتُهْمَةِ إساءَةِ مُعامَلَةِ الْخَيْلِ أَنْ يَقْرَأَ «بلاك بيوتي» ثَلاثَ مَرّاتٍ لِيَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَعْتَني بِجَوادِهِ الْعِنايَةَ الصَّحيحَةَ.

غَيْرَ أَنَّ «بلاك بيوتي» لَيْسَ كِتابًا حَوْلَ الْعِنايَةِ بِالْخَيْلِ فَقَطْ. إِنَّهُ أَيْضًا قِصَّةُ مُغامَراتٍ مُثيرَةٍ مُشَوِّقَةٍ. إِنَّ فيهِ حَبْكَةً مُدْهِشَةً، وَفيهِ بَطَلٌ يُصارِعُ ضِدَّ أَحْداثٍ تَسْعى إِلى قَهْرِهِ. وَفيهِ لَحَظاتٌ مِنَ التَّرَقُّبِ وَالتَّهَيُّبِ، مِنْها على سَبيلِ الْمِثالِ اللَّحْظَةُ الَّتي يُحْتَبَسُ فيها بلاك بيوتي في إِسْطَبْلٍ يَحْتَرِقُ، أَوِ اللَّحْظَةُ الَّتي يُوْشِكُ فيها أَنْ يَنْدَفِعَ بِعَرَبَتِهِ فَوْقَ جِسْرٍ مُخَلَّعٍ. وَفَوْقَ ذٰلِكَ، فَإِنَّ الْكِتابَ مَليءٌ بِشَخْصِيّاتٍ بارِزَةِ الْمَعالِمِ. إِنَّ الْجِيادَ الَّتي تَرْسُمُها آنّا سِوَل هِيَ شَخْصِيّاتٌ يَجِدُ فيها الْقارِئُ مُقابِلاتٍ في الْحَياةِ وَيَتَعاطَفُ مَعَها.

مُنْذُ أَنْ نَشَرَتْ آنّا سِوَل كِتابَها صَدَرَ الْعَديدُ مِنَ الرِّواياتِ الَّتي تَتَحَدَّثُ عَنْ مُعامَلَةِ الْحَيَواناتِ مُعامَلَةً قاسِيَةً. مُعْظَمُ تِلْكَ الْكُتُبِ غَمَرَها النِّسيانُ. لٰكِنَّ الْأُسْلوبَ النّابِضَ بِالْحَياةِ الَّذي رَوَتْ فيهِ آنّا سِوَل قِصَّتَها، أَمَّنَ لَها، على مَرِّ السِّنينَ، رَواجًا عَظيمًا.



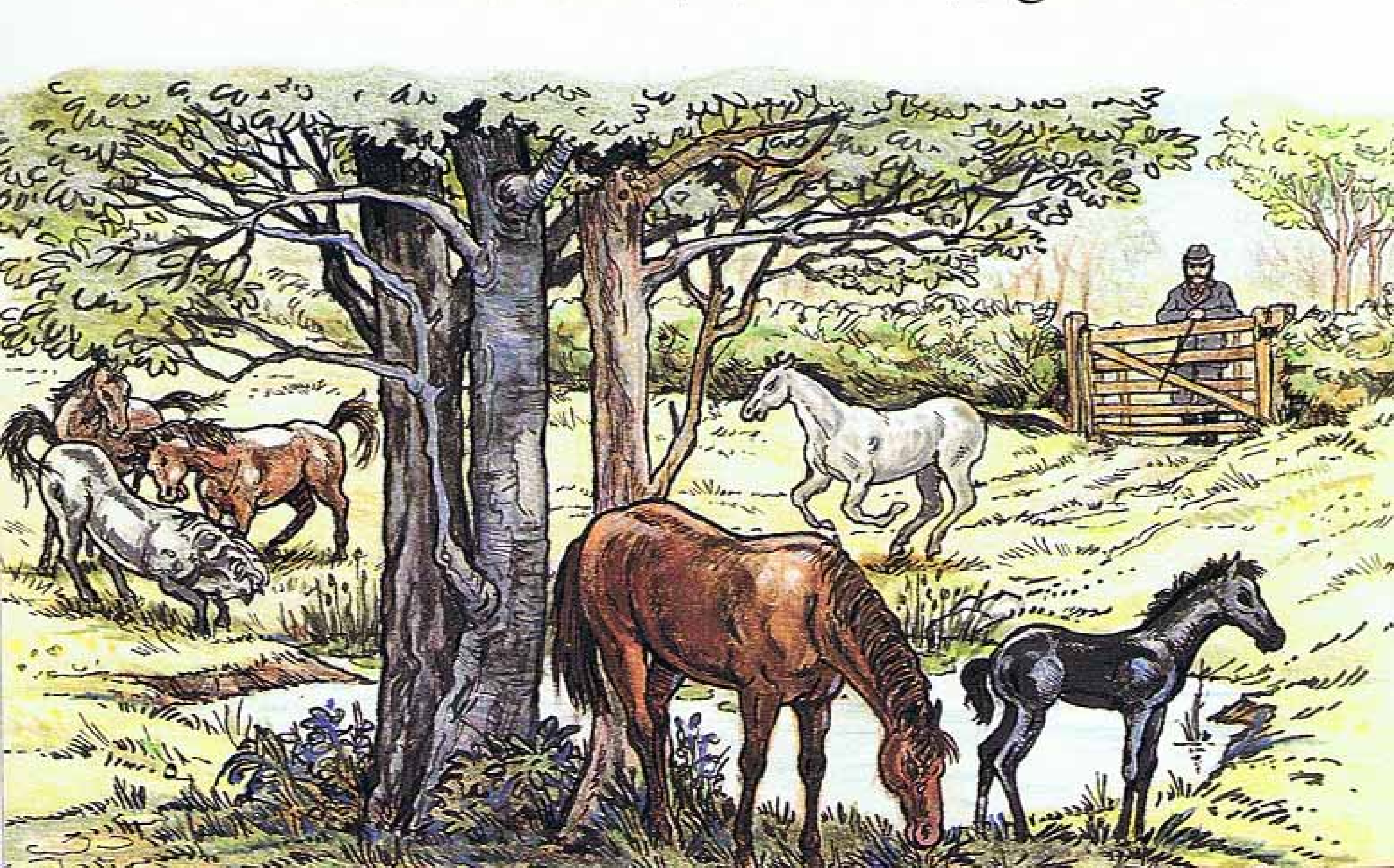
المُهْرُ الأَسْوَد

كُنْتُ وَأَنا مُهْرٌ أَعيشُ مَعَ أُمّي في مَرْجٍ بَهيجٍ واسِعٍ تَتَوَسَّطُهُ بِرْكَةُ ماءٍ صافٍ. كُنّا في الْأَيّامِ الْحارَّةِ نَسْتَظِلُّ أَشْجارًا كانَتْ تَنْمو عَلى حِفافِ الْماءِ، أَمّا في الْأَيّامِ الْبارِدَةِ فَقَدْ كانَ لَنا في أَعْلى الْمَرْجِ، قَريبًا مِنَ الْمَزْرَعَةِ، سَقيفَةٌ لَطيفَةٌ دافِئَةٌ نَلْتَجِئُ إِلَيْها.

كانَ في الْحَقْلِ أَيْضًا أَمْهارٌ أُخْرى اعْتَدْتُ أَنْ أَجْرِيَ مَعَها وَأَلْعَبَ. وَكانَتِ الْخُشونَةُ تَطْغى عَلَيْنا أَحْيانًا فَنَرْفُسُ بَعْضُنا بَعْضًا وَنَعَضُّ. وَفي أَحَدِ الْأَيّامِ حَمْحَمَتْ أُمّي تَسْتَدْعيني إِلَيْها، وَأَعْطَتْني نَصيحَةً لَنْ أَنْساها أَبَدًا. قالَتْ لي:

«أَنْتَ مِنْ سُلالَةٍ أَصيلَةٍ وَمَنْبِتٍ حَسَنٍ. آمُلُ أَنْ تَنْشَأَ عَلى اللُّطْفِ وَحُسْنِ التَّصَرُّفِ. لِتَكُنْ حَسَنَ النِّيَّةِ فيما تَفْعَلُ. اِحْرِصْ عِنْدَما تَخُبُّ عَلى أَنْ تَرْفَعَ قَوائِمَكَ عالِيًا، وَلا تَرْفُسْ أَوْ تَعَضَّ أَبَدًا حَتّى وَلا في اللَّعِبِ.»

جَعَلَ صاحِبُنا مِنْ أُمّي فَرَسَهُ الْمُفَضَّلَةَ. وَكَثيرًا ما كانَ يَجْلِبُ لَنا خُبْزًا أَوْ جَزَرًا، وَلا يَسْمَحُ لِأَيٍّ كانَ أَنْ يَكونَ في مُعامَلَتِنا خَشِنًا أَوْ قاسِيًا.





فِي صَباحِ يَوْمٍ رَبيعِيٍّ بارِدٍ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ بَلَغْتُ الثّانِيَةَ مِنْ عُمْري بَعْدُ، حَدَثَ ما لا أَنْساهُ أَبَدًا. كُنّا، أَنا وَالْأَمْهارُ، نَرْتَعُ قُرْبَ الْجَدْوَلِ في الْجانِبِ الْأَسْفَلِ مِنَ الْمَرْجِ عِنْدَما تَناهى إِلَيْنا مِنْ بَعيدٍ أَصْواتُ كِلابٍ تَعْوي.

قالَتْ أُمّي: «إِنَّهُمْ يُلاحِقونَ أَرْنَبًا. إِذا أَقْبَلوا ناحِيَتَنا رَأَيْنا مُطارَدَةَ الصَّيْدِ.»

رَأَيْنا، بَعْدَ وَقْتٍ وَجيزٍ، أَرْنَبًا يَنْدَفِعُ أَمامَنا انْدِفاعَ مَذْعورٍ. وَرَأَيْنا كِلابًا تُلاحِقُهُ. وَوَراءَ الْكِلابِ رَأَيْنا عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ يَجْرونَ عَلى خُيولِهِمْ بِما يَقْدِرونَ عَلَيْهِ مِنْ سُرْعَةٍ. وَصَلَتِ الْكِلابُ إِلى الْجَدْوَلِ فَخاضَتْهُ. ثُمَّ وَصَلَ الرِّجالُ عَلى أَفْراسِهِمْ فَخاضَ بَعْضُهُمْ فيهِ وَجَرى بَعْضُهُمْ لِيَعْبُرَهُ في قَفْزَةٍ واحِدَةٍ. حاوَلَ الْأَرْنَبُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ مُطارِديهِ لٰكِنْ سُرْعانَ ما كانَتِ الْكِلابُ قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَقَضَتْ عَلَيْهِ.

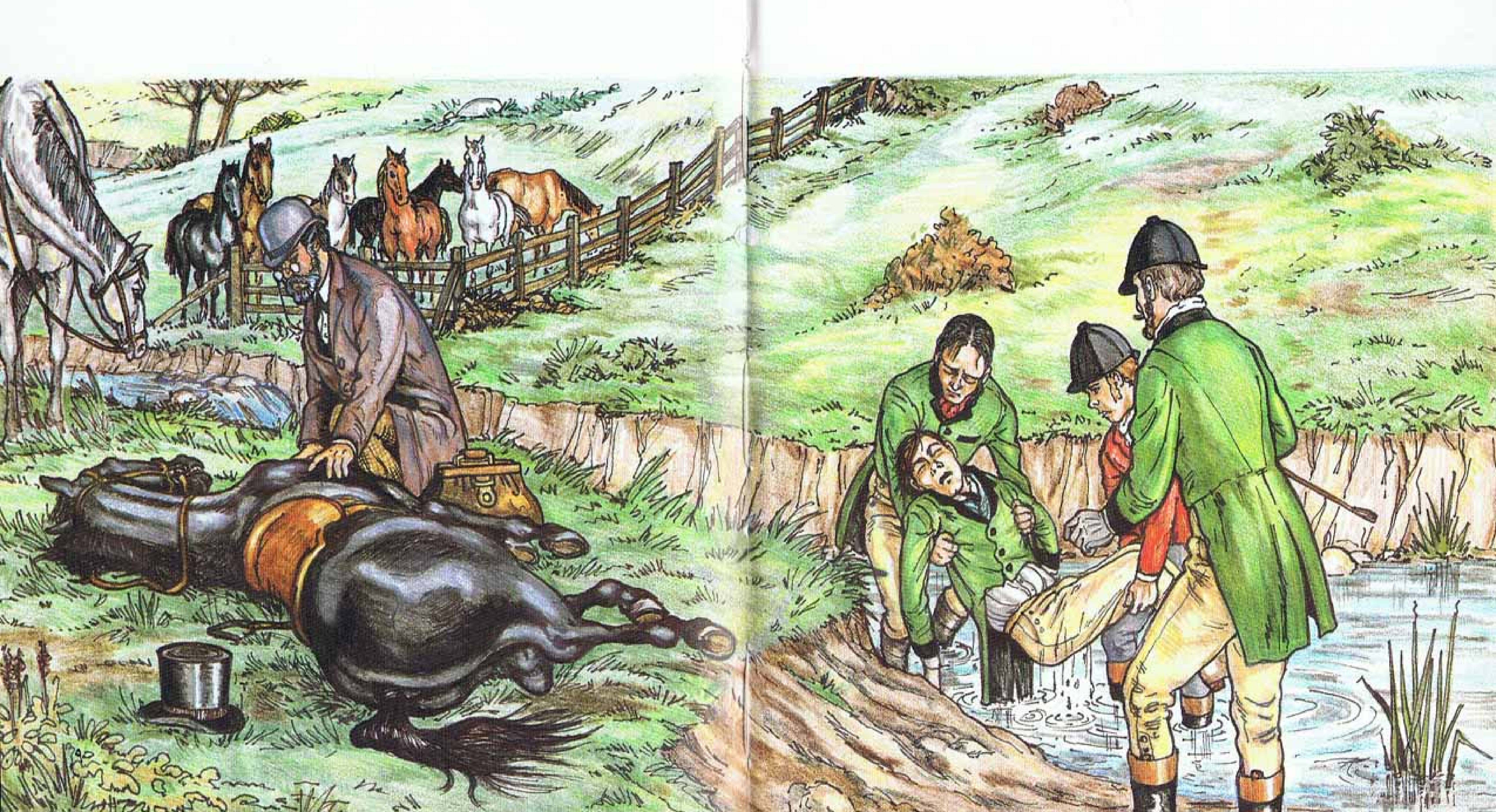
اِلْتَفَتُّ إِلى الْجَدْوَلِ فَرَأَيْتُ مَشْهَدًا مُحْزِنًا. رَأَيْتُ فَرَسَيْنِ رائِعَيْنِ مُنْطَرِحَيْنِ أَرْضًا يَئِنّانِ. كانَ أَحَدُ الْفارِسَيْنِ يُحاوِلُ آنَذاكَ الْخُروجَ مِنَ الْماءِ الَّذي وَقَعَ فيهِ. أَمّا الْآخَرُ فَكانَ ساكِنًا لا يَتَحَرَّكُ. قالَتْ أُمّي: «كُسِرَ عُنُقُهُ».

خَطَرَ لي عِنْدَئِذٍ أَنَّ ذٰلِكَ الْفارِسَ قَدْ نالَ جَزاءَهُ. لٰكِنَّ أُمّي خالَفَتْني الرَّأْيَ. قالَتْ: «لا تَقُلْ ذٰلِكَ، يا بُنَيَّ. أَنا فَرَسٌ عَجوزٌ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنّي لا أَفْهَمُ لِمَ يَتَعَلَّقُ النّاسُ بِهٰذِهِ الرِّياضَةِ. كَثيرًا ما يُؤْذونَ أَنْفُسَهُم وَيُهْلِكونَ خُيولَهُمْ وَيُفْسِدونَ حُقولَهُمْ. وَذٰلِكَ كُلُّهُ طَمَعًا بِأَرْنَبٍ أَوْ ثَعْلَبٍ أَوْ غَزالٍ، وَهُمْ قادِرونَ عَلى أَنْ يَحْصُلوا عَلى ما يُريدونَ بِوَسيلَةٍ هَيِّنَةٍ غَيْرِ تِلْكَ. وَلٰكِنْ ما أَدْرانا فَنَحْنُ، مَعْشَرَ الْخُيولِ، لا دِرايَةَ لَنا بِهٰذِهِ الْأُمورِ!»

وَبَيْنَما كانَتْ أُمّي تُكَلِّمُني، رَأَيْتُ رِجالًا يَرْفَعونَ الشّابَّ الْقَتيلَ مِنَ الْجَدْوَلِ وَيَحْمِلونَهُ. وَعَلِمْنا أَنَّ ذٰلِكَ الشّابَّ، وَكانَ زَيْنَ الشَّبابِ، ابْنُ صاحِبِ قَصْرِ الْحَدائِقِ الْمُجاوِرِ. سُرْعانَ ما أَقْبَلَ البَيْطارُ وَرَأَيْناهُ يَتَحَسَّسُ الْجَوادَ الْأَسْوَدَ الَّذي كانَ يَئِنُّ في مَوْضِعِهِ مِنَ الْعُشْبِ، ثُمَّ يَهِزُّ رَأْسَهُ أَسَفًا. رَأَيْنا بَعْدَ ذٰلِكَ رَجُلًا يَجْري إِلى مَنْزِلِ صاحِبِنا وَيَعودُ بِبُنْدُقِيَّةٍ. وَما هِيَ إِلّا لَحَظاتٌ حَتّى دَوَّتْ طَلْقَةٌ في الْفَضاءِ رَأَيْنا مَعَها جَسَدَ الْجَوادِ يَخْتَلِجُ اخْتِلاجَةً سَريعَةً ثُمَّ يَهْمُدُ.

أَصابَ أُمّي كَرْبٌ شَديدٌ. قالَتْ لي إِنَّها قَدْ عَرَفَتْ ذٰلِكَ الْجَوادَ مُنْذُ سِنينَ. كانَ جَوادًا وَديعًا كَريمًا، لا عِلَّةَ فيهِ. وَمُنْذُ ذٰلِكَ الْيَوْمِ لَمْ تَطَأْ قَوائِمُها الْأَرْضَ الَّتي وَقَعَ فيها.

في الْيَوْمِ التّالي وَصَلَتْ عَرَبَةٌ غَريبَةٌ مُجَلَّلَةٌ بِالسَّوادِ، وَتَجُرُّها جِيادٌ سَوْداءُ. رَأَيْنا تِلْكَ الْعَرَبَةَ تَحْمِلُ الشّابَّ الْقَتيلَ إِلى مَدْفِنِ الْعائِلَةِ. لَنْ يَرْكَبَ بَعْدَ الْيَوْمِ فَرَسًا. أَمّا ما فَعَلوهُ بِالْحِصانِ الْقَتيلِ فَلَمْ يَصِلْني عِلْمُهُ. كُلُّ ذٰلِكَ طَمَعًا بِاقْتِناصِ أَرْنَبٍ صَغيرٍ.





إذْ بَلَغْتُ الرّابِعَةَ مِنْ عُمْري كانَ كُلُّ مَنْ حَوْلي قَدْ أَدْرَكوا أَنّي جَوادٌ بَهِيُّ الطَّلْعَةِ. كانَ جِلْدي أَسْوَدَ ناعِمًا لَمّاعًا. وَقَدْ زادَني بَهاءً أَنَّ إِحْدى قَوائِمي بَيْضاءُ وَأَنَّ غُرَّةً نَجْمِيَّةً بَيْضاءَ تُزَيِّنُ جَبْهَتي. وَذاتَ يَوْمٍ جاءَ السَّيِّدُ غوردُن، صاحِبُ قَصْرِ الْحَدائِقِ الْمُجاوِرِ وَوالِدُ الشّابِّ الَّذي ذَهَبَ ضَحِيَّةَ حادِثِ الصَّيْدِ. وَتَفَحَّصَني. وَسُرْعانَ ما أَبْدى رِضاهُ عَنّي وَعَزَمَ عَلى شِرائي. فَقَدْ كانَ صاحِبي قَدْ أَتَمَّ تَرْويضي عَلى الْحَمْلِ وَجَرِّ الْعَرَباتِ. فَعَلَ ذٰلِكَ بِرِفْقٍ شَديدٍ وَعِنايَةٍ فائِقَةٍ.

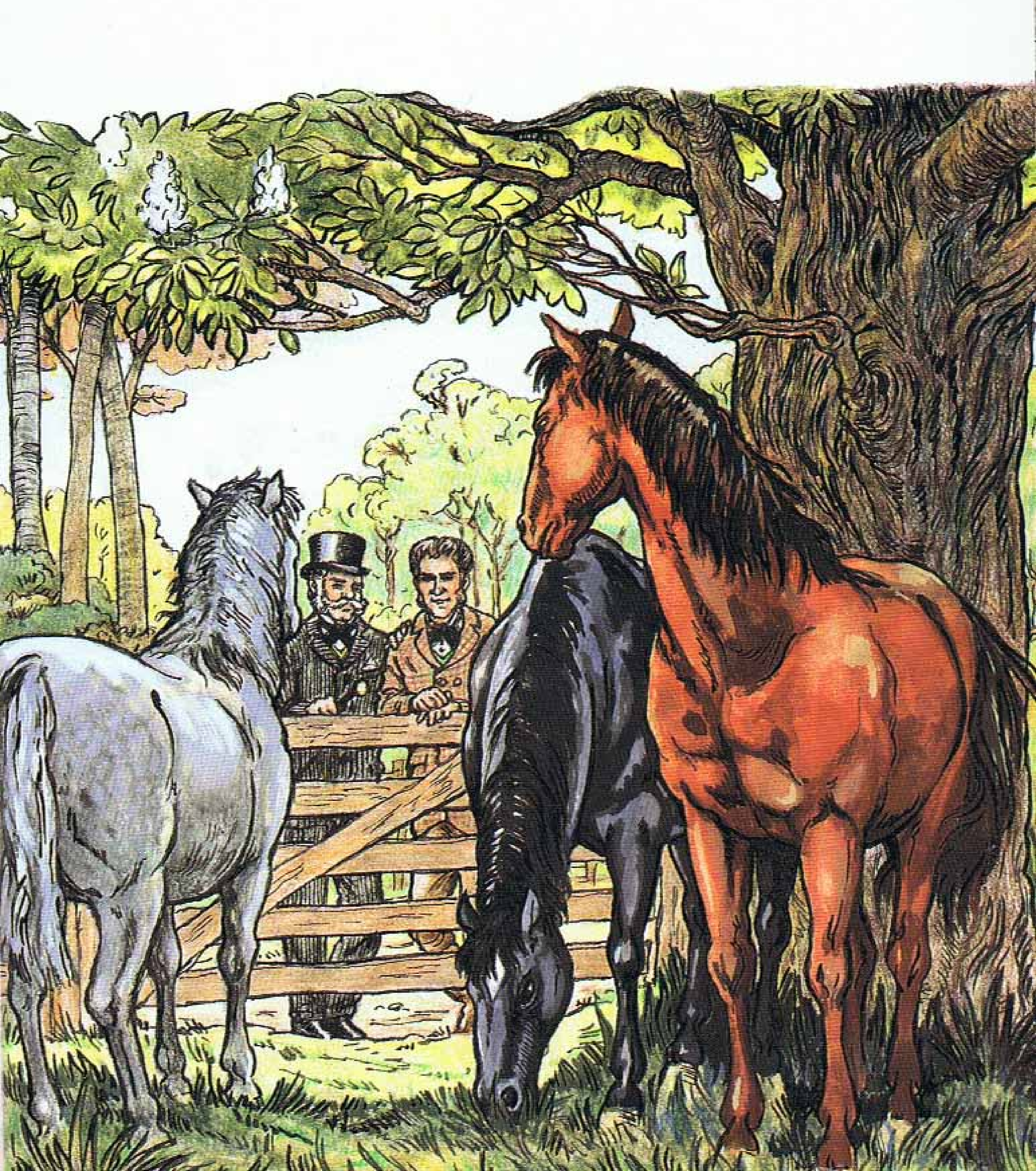


فِي أَوائِلِ أَيّارَ (مايو) أَرْسَلَ السَّيِّدُ غورْدُن واحِدًا مِنْ رِجالِهِ لِيَأْخُذَني إلى قَصْرِهِ. كانَ الْقَصْرُ واسِعًا تَشْتَمِلُ بَعْضُ الْحَظائِرِ الْمُلْحَقَةِ بِهِ على الْعَديدِ مِنَ الْخُيولِ وَالْعَرَباتِ. وَقَدْ أَنْزَلَني الرَّجُلُ في مَقْسَمٍ واسِعٍ مُريحٍ مِنَ الإسْطَبْلِ، وَأَعْطاني بَعْضَ الشوفانِ الشَّهِيِّ وَرَبَّتَ جَسَدي بِلُطْفٍ وَمَضى.

كانَ في الْمَقْسَمِ الْمُجاوِرِ مُهْرٌ أَشْهَبُ صَغيرٌ سَمينٌ ذو عُرْفٍ وَذَيْلٍ غَزيرَيْنِ. عَلِمْتُ أَنَّ اسْمَهُ مَرِلَغ. كانَ مُهْرًا وَدودًا جِدًّا، وَقَدْ أَخْبَرَني أَنَّهُ هُوَ الَّذي يَحْمِلُ صَبايا الْمَنْزِلِ. أَمّا الْمَقْسَمُ الَّذي يَلي ذٰلِكَ، فَقَدْ كانَ فيهِ فَرَسٌ كَسْتَنائِيَّةٌ طَويلَةٌ بَهِيَّةُ الطَّلْعَةِ، لٰكِنَّها كانَتْ أَوَّلَ الْتِقائي بِها مُجافِيَةً. خَرَجَتْ تِلْكَ الْفَرَسُ بَعْدَ الظُّهْرِ مِنَ الإسْطَبْلِ، فَانْتَهَزَ مَرِلَغُ الْفُرْصَةَ وَأَخْبَرَني سَبَبَ ما فيها مِنْ جَفاءٍ. قالَ إِنَّ الَّذينَ تَوالَوْا مِنْ قَبْلُ عَلى امْتِلاكِها عامَلوها مُعامَلَةً قاسِيَةً، فَتَوَلَّدَتْ عِنْدَها عاداتٌ سَيِّئَةٌ كَالْعَضِّ وَالرَّفْسِ.

ثُمَّ قالَ: «لٰكِنْ أَظُنُّ أَنَّ جِنْجِرَ سَتُحْسِنُ التَّصَرُّفَ هُنا، فَلَيْسَ في الْبِلادِ كُلِّها مَكانٌ يَفْضُلُ هٰذا الْمَكانَ مِنْ حَيْثُ الْعِنايَةُ بِالْخَيْلِ.»

كانَ سائِقُ عَرَبَتِنا، جون مانْلي، خَيْرَ مَنْ يُحْسِنُ سِياسَةَ الْخَيْلِ. أَرادَ أَنْ يُجَرِّبَني فَامْتَطى ظَهْري وَجَرى في الْبَرِّيَّةِ. وَعادَ فَامْتَدَحَني أَمامَ صاحِبِ الْمَزْرَعَةِ، وَقالَ: «إِنَّهُ سَريعٌ كَالْغَزالِ، نَشِطٌ شَهْمٌ، وَإِنَّ حَرَكَةً خَفيفَةً مِنَ الْعِنانِ تُوَجِّهُهُ.»



أَبْدى صاحِبُ الْمَزْرَعَةِ سُرورَهُ بي وَرَأى هُوَ وَالسَّيِّدَةُ زَوجَتُهُ أَنْ يُسَمِّياني بْلاك بْيوتي، أيِ الْجمالَ الْأَسْوَدَ.

كانَ عَلَيَّ، بَعْدَ أَيّامٍ، أَنْ أَجُرَّ أَنا وَجِنْجِرُ الْعَرَبَةَ. أَحْسَنْتُ التَّصَرُّفَ، وَعَمِلْتُ بِهِمَّةٍ وَنَشاطٍ. وَسُرْعانَ ما أَصْبَحْنا، أَنا وَجِنْجِرُ، صَديقَيْنِ. وَقَدْ ساعَدَتْني صُحْبَتُها وَصُحْبَةُ مَرِلَغ عَلى أَنْ أَتَعَوَّدَ عَلى مَنْزِلي الْجَديدِ وَأَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ.

عَلى أَنّي لَمْ أَكُنْ مُتَعَوِّدًا عَلى أَنْ أَقْضِيَ مُعْظَمَ وَقْتي في إِسْطَبْلٍ. وَجَدْتُ ذٰلِكَ غَريبًا. وَكُنْتُ لِذٰلِكَ أَسْتَحِبُّ أَيّامَ الْعُطْلَةِ الْأُسْبوعِيَّةِ الَّتي كُنّا نَقْضيها أَنا وسائِرُ الْخُيولِ في مَرْعًى مُجاوِرٍ. كُنّا في تِلْكَ الْأَيّامِ نَجْري عَلى هَوانا وَنَتَقَلَّبُ عَلى ظُهورِنا وَنَرْتَعُ الْحَشيشَ. وَكُنّا أَحْيانًا نَتَجَمَّعُ في ظِلِّ شَجَرَةِ الْكَسْتَناءِ الْوارِفَةِ الظِّلالِ وَنَتَجاذَبُ أَطْرافَ الْحَديثِ. وَفي هٰذا الْمَكانِ حَدَّثَتْني جِنْجِرُ عَنِ الْمُعامَلَةِ الْقاسِيَةِ الَّتي عانَتْ مِنْها في ما مَضى.

قالَتْ: «لَوْ نَشَأْتُ مِثْلَكَ نَشْأَةً هانِئَةً لَعَلّي اكْتَسَبْتُ مِثْلَكَ خُلُقًا رَضِيًّا. أَعْتَقِدُ الْآنَ أَنّي لَنْ أَكونَ يَوْمًا مِثْلَكَ. لَمْ يَكُنْ عِنْدي، كَما كانَ عِنْدَكَ، سائِسٌ عَطوفٌ يَرْعاني وَيُطْعِمُني الْأَطايِبَ. ذٰلِكَ الرَّجُلُ الَّذي كانَ سائِسي لَمْ يَقُلْ لي في حَياتي كُلِّها كَلِمَةً لَطيفَةً واحِدَةً.»

ثُمَّ أَخْبَرَتْني كَيْفَ أَنَّ سائِسَها تَوَلّى تَرْويضَها عَلى الْحَمْلِ وَالْجَرِّ بِخُشونَةٍ وَقَسْوَةٍ، وَأَنَّها عِنْدَما اسْتُخْدِمَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ في جَرِّ الْعَرَباتِ كانَتْ لا تُطيقُ ذٰلِكَ اللِّجامَ الَّذي يُبْقي رَأْسَ الْحِصانِ مَرْفوعًا أَبَدًا. وَقَدْ تَحامَلَتْ ذاتَ يومٍ عَلى نَفْسِها وتَخَلَّصَتْ مِنْهُ وَلٰكِنْ بَعْدَ أَنْ تَمَزَّقَ فَكّاها. وَكانَ أَصْحابُها كُلَّما لَمَسوا مِنْها رَفْضَها لِمُعامَلَتِهِمْ يَتَخَلَّصونَ مِنْها بِبَيْعِها. وَقَدْ بيعَتْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ إِلى أَنْ أَوْقَعَها الْحَظُّ أَخيرًا في هٰذِهِ الْمَزْرَعَةِ، وأَخَذَتْ، بِعِنايَةِ جون مانْلي، تَتَحَوَّلُ إِلى حَيَوانٍ لَطيفٍ.



كُنْتُ كُلَّما طالَتْ إقامَتي في ذٰلِكَ الْمَكانِ أَزْدادُ سَعادَةً وَاعْتِزازًا. فَقَدْ كانَ النّاسُ جَميعًا يُحِبّونَ صاحِبَ الْمَزْرَعَةِ وَصاحِبَتَها وَيَحْتَرِمونَهُما. لَمْ يَكُنْ صاحِبي يَتَرَدَّدُ أَبَدًا في تَعْنيفِ كُلِّ مَنْ يُسيءُ مُعامَلَةَ حَيَوانٍ.

أَذْكُرُ مَرَّةً أَنّي كُنْتُ عائِدًا بِصاحِبي إلى الْمَنْزِلِ فَرَأَيْنا رَجُلًا ضَخْمًا يُقْبِلُ نَحْوَنا في عَرَبَةٍ خَفيفَةٍ يَجُرُّها مُهْرٌ لَطيفٌ ذو قَوائِمَ رَشيقَةٍ وَرَأْسٍ عالٍ. عِنْدَما وَصَلَ الْمُهْرُ قَريبًا مِنّا الْتَفَتَ نَحْوَ بَوّابَةِ الْقَصْرِ. فَما كانَ مِنْ ذٰلِكَ الرَّجُلِ إِلّا أَنْ شَدَّ الْعِنانَ شَدَّةً عَنيفَةً مُفاجِئَةً كادَتْ أَنْ تُوقِعَ الْمُهْرَ عَلى قَفاهُ. ثُمَّ راحَ يَضْرِبُهُ بِالسَّوْطِ ضَرْبًا عَنيفًا. اِنْكَفَأَ الْمُهْرُ الصَّغيرُ إلى الْأَمامِ، لٰكِنَّ الرَّجُلَ أَسْرَعَ يَشُدُّ الْعِنانَ شَدَّةً عَنيفَةً تَكْفي لِخَلْعِ فَكِّهِ.

أَوْعَزَ إِلَيَّ صاحِبي بِاللَّحاقِ بِذٰلِكَ الرَّجُلِ. وَما هِيَ إِلّا لَحَظاتٌ حَتّى كُنّا إلى جِوارِهِ.

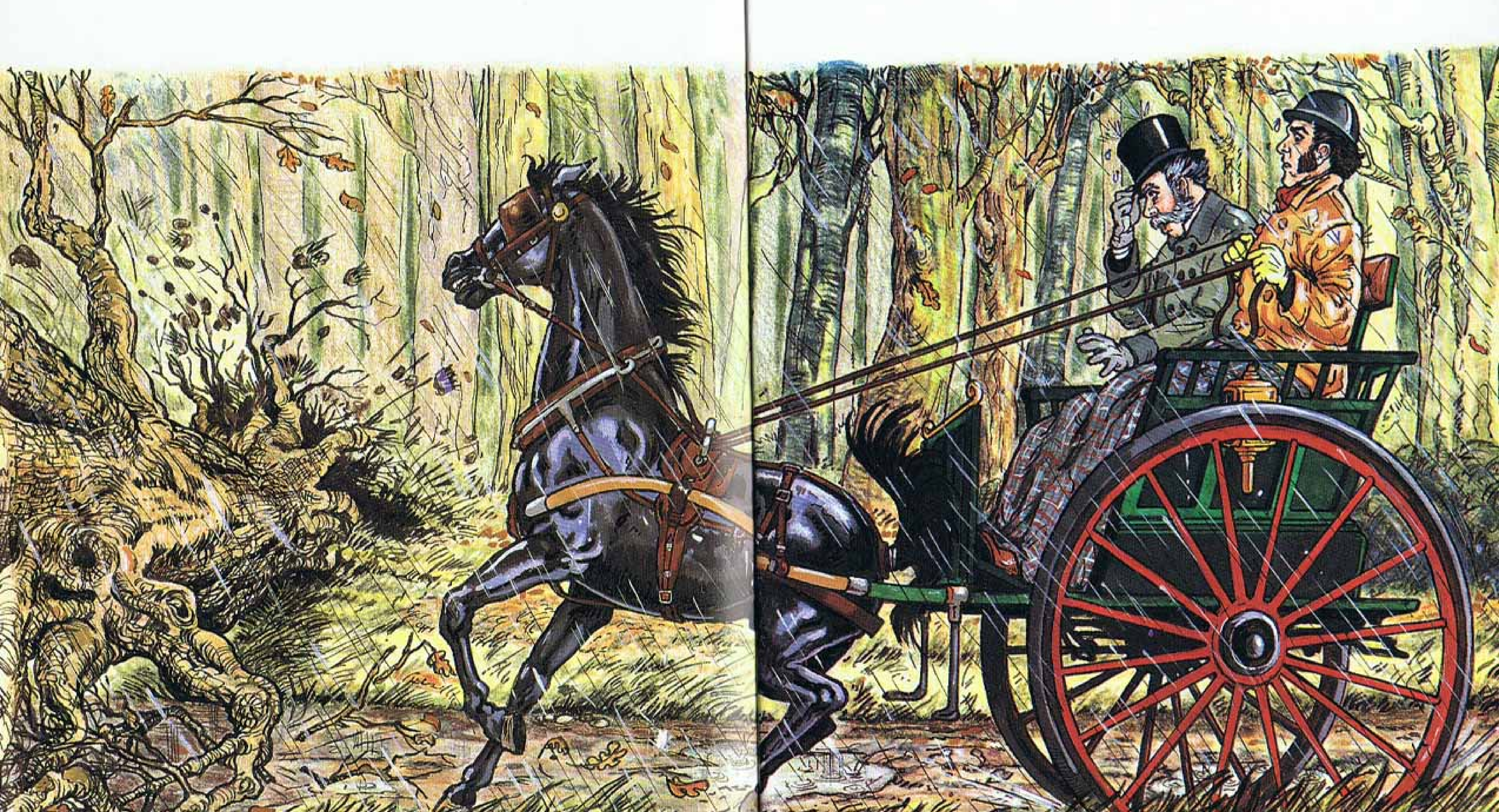


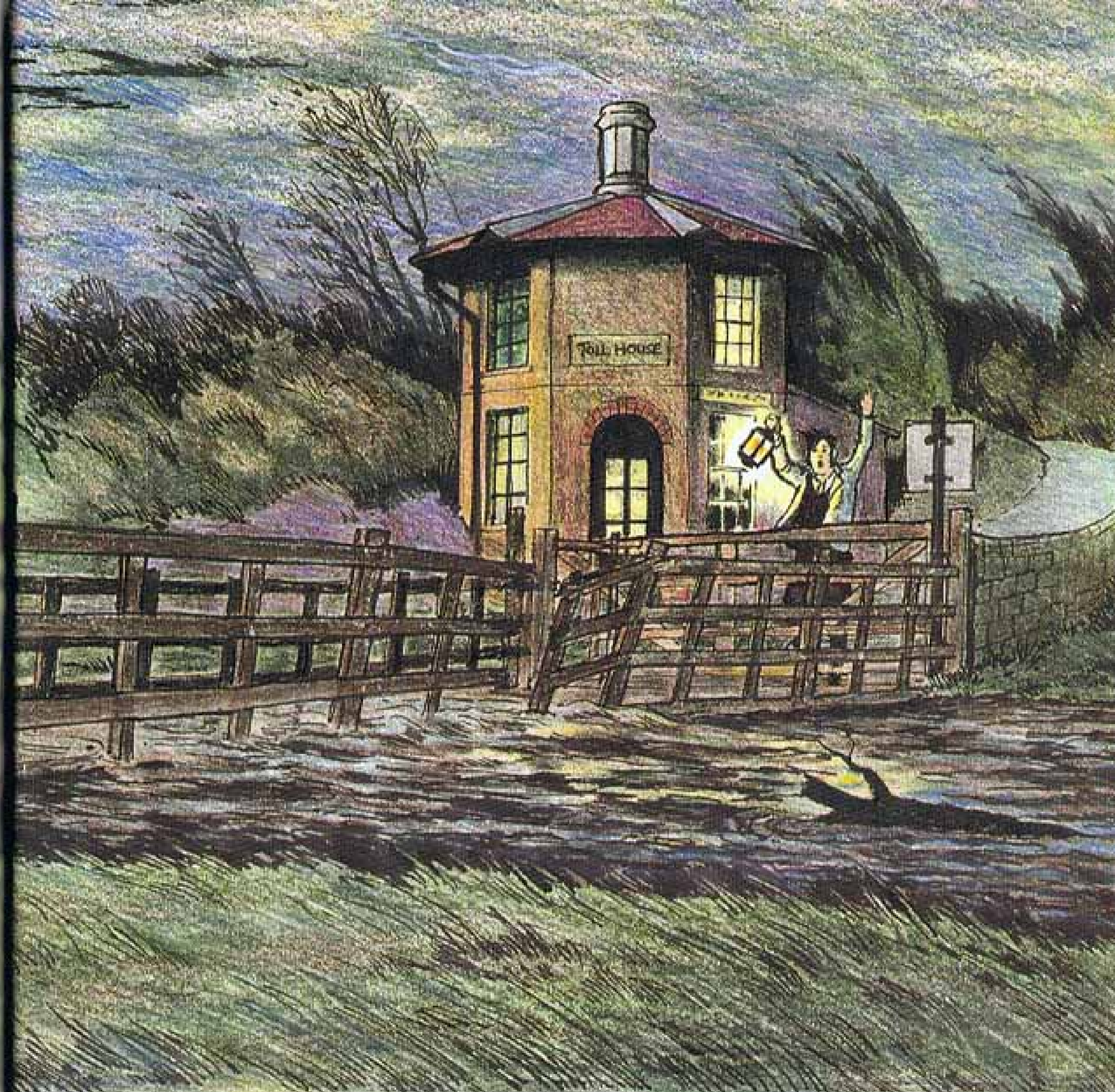
قالَ صاحِبي بِصَوْتٍ حانِقٍ: «يا سَيِّدُ، أَنا لَمْ أَرَ مِنْ قَبْلُ أَحَدًا يُعامِلُ مُهْرًا صَغيرًا هٰذِهِ الْمُعامَلَةَ الْجَبانَةَ الْقاسِيَةَ. إِنَّكَ بِاسْتِسْلامِكَ لِعَواطِفِكَ وَأَهْوائِكَ تُسيءُ إِلى نَفْسِكَ مِثْلَما تُسيءُ إِلى جَوادِكَ وَأَكْثَرَ. تَذَكَّرْ أَنَّ أَعْمالَنا تَدينُنا، سَواءٌ في تَصَرُّفِنا مَعَ إِخْوانِنا مِنَ الْبَشَرِ أَوْ مَعَ الْحَيَواناتِ.»

قادَني صاحِبي إِلى الْبَيْتِ عَلى مَهْلٍ، وَقَدْ أَشْعَرَني صَوْتُهُ أَنَّهُ كانَ حَزينًا جِدًّا.

كانَ عَلى صاحِبي، في يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ أَواخِرِ الْخَريفِ، أَنْ يَقومَ بِرِحْلَةِ عَمَلٍ. وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَجُرَّ عَرَبَةً خَفيفَةً يَقودُها جون. اِنْطَلَقْنا مُنْشَرِحينَ إِلى أَنْ بَلَغْنا جِسْرًا خَشَبِيًّا. وَقَدْ رَأَيْنا أَنَّ الْأَمْطارَ الْغَزيرَةَ الَّتي كانَتْ قَدْ تَساقَطَتْ تَسَبَّبَتْ في ارْتِفاعِ مُسْتَوى الْمِياهِ الَّتي وَصَلَتْ إِلى الْجِسْرِ نَفْسِهِ. قالَ لَنا حارِسُ الْجِسْرِ إِنَّ مَنْسوبَ الْمِياهِ لا يَزالُ يَرْتَفِعُ ارْتِفاعًا سَريعًا، وَإِنَّهُ يُخْشى أَنْ تَكونَ تِلْكَ لَيْلَةً عاصِفَةً. غَيْرَ أَنَّنا تابَعْنا سَيْرَنا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُخيفُني أَنْ تَلْعَقَ الْمِياهُ قَوائِمي.

لاحَظْنا في طَريقِ عَوْدَتِنا مَساءَ ذٰلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ الرّيحَ أَخَذَتْ تَشْتَدُّ. وَسُرْعانَ ما هَبَّتْ عاصِفَةٌ سَمِعْتُ صاحِبي يَقولُ إِنَّهُ لَمْ يَرَ في حَياتِهِ عاصِفَةً في شِدَّتِها. وَبَيْنَما كُنّا بِمُحاذاةِ الْغابَةِ سَمِعْنا الرّيحَ تُعْوِلُ بَيْنَ الْأَشْجارِ عَويلًا مُريعًا. فَجْأَةً، سَمِعْنا صَريرًا شَديدًا وَأَصْواتَ تَشَقُّقٍ وَانْخِلاعٍ. ثُمَّ رَأَيْنا شَجَرَةَ سِنْديانٍ تَسْقُطُ أَمامَنا، وَقَدِ انْخَلَعَتْ مِنْ جُذورِها، وَتَسُدُّ عَلَيْنا الطَّريقَ. جَمَدْتُ في مَكاني أَرْتَعِشُ، فَقَفَزَ جون في الْحالِ إِلى ظَهْري وَأَمْسَكَني يُهَدِّئُ مِنْ رَوْعي.





إِسْتَحالَ عَلَيْنا مُواصَلَةَ طَريقِنا ذاكَ. فَاسْتَدَرْنا وَاتَّخَذْنا طَريقًا غَيْرَهُ مَشَينا فيهِ في الظَّلامِ سِتَّةَ أَمْيالٍ، قَبْلَ أَنْ نَصِلَ إِلى الْجِسْرِ الْخَشَبِيِّ. وَما إِنْ وَضَعْتُ قَدَمي عَلى الْجِسْرِ حَتّى أَدْرَكْتُ أَنَّنا مُقْبِلونَ عَلى خَطَرٍ. فَوَقَفْتُ لا أَتَحَرَّكُ غَيْرَ آبِهٍ بِأَوامِرِ سَيِّدي وَلا بِمُحاوَلاتِ جون لِحَمْلي عَلى مُواصَلَةِ السَّيْرِ. وَبَعْدَ لَحَظاتٍ رَأَيْنا حارِسَ الْجِسْرِ في الْجانِبِ الْآخَرِ يَحْمِلُ في يَدِهِ مِشْعَلًا، وَيَجْري وَهُوَ يَصيحُ:

«اَلْجِسْرُ مَكْسورٌ في وَسَطِهِ، وَقَدْ حَمَلَتِ الْمِياهُ جانِبًا مِنْهُ. إِذا واصَلْتُمُ السَّيْرَ وَقَعْتُمْ في النَّهْرِ!»



عُدْنا أَدْراجَنا ثانِيَةً. وَرُحْتُ أَخُبُّ في طَريقٍ أُخْرى خَبَبًا سَريعًا إِلى أَنْ بَلَغْنا مَشارِفَ الْقَصْرِ. خَرَجَتْ سَيِّدَتي تَسْتَقْبِلُنا، فَقالَ لَها سَيِّدي:

«لَوْ لَمْ يَكُنْ بْلاك بْيوتي، يا عَزيزَتي، أَشَدَّ حِكْمَةً مِنّا، لَكُنّا كُلُّنا وَقَعْنا في النَّهْرِ وَغَرِقْنا!»

أَعادَني جون إِلى الْإِسْطَبْلِ وَقَدَّمَ لي عَشاءً شَهِيًّا. وَأَضافَ إِلى فِراشي طَبَقَةً سَميكَةً مِنَ الْقَشِّ. كُنْتُ تَعِبًا فَأَسْعَدَني ذٰلِكَ الْفِراشُ الْوَثيرُ.

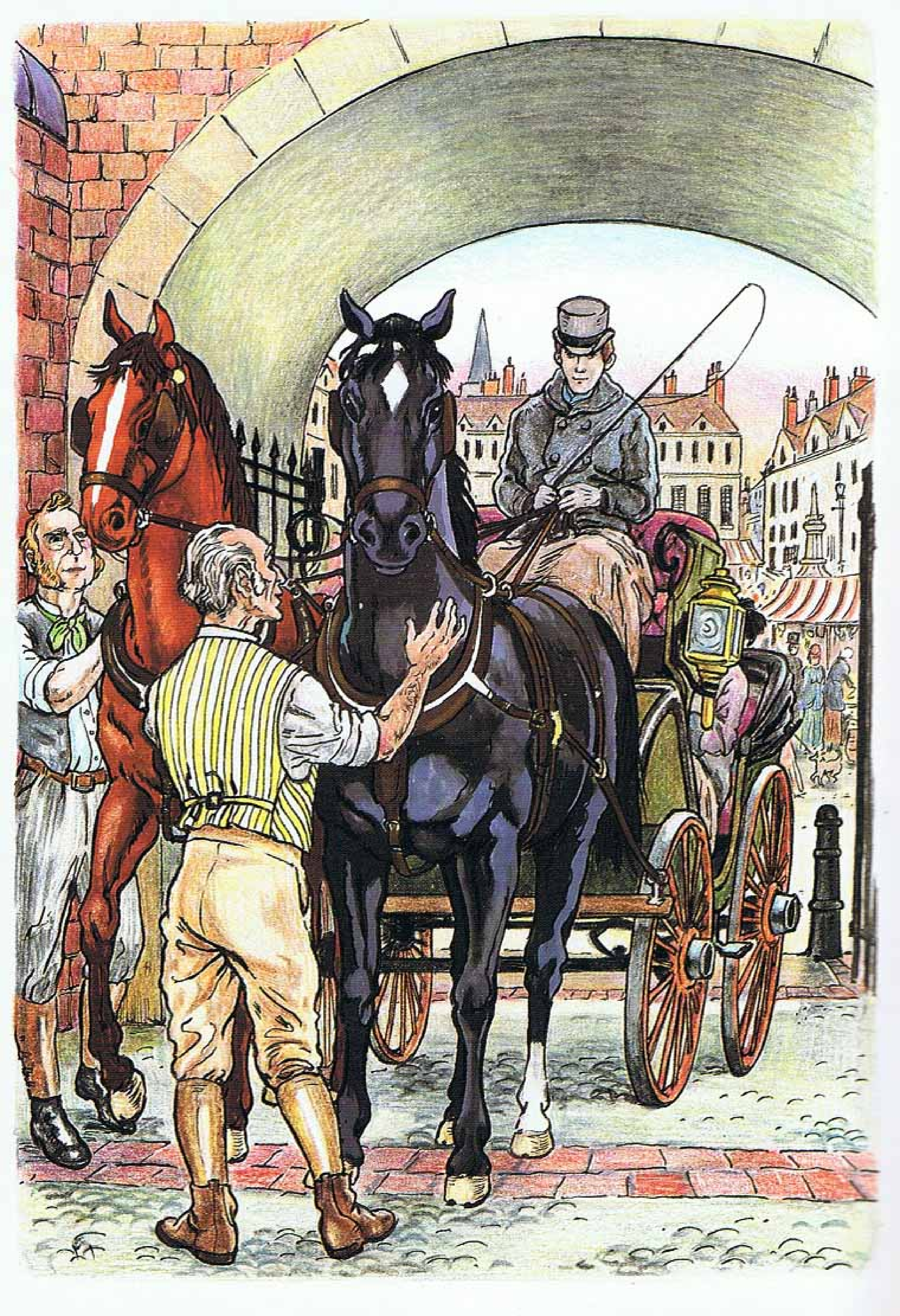
بَعْدَ أَيّامٍ، عَزَمَ سَيِّدي وَسَيِّدَتي عَلى زِيارَةِ بَعْضِ الْأَصْدِقاءِ في بَلْدَةٍ تَبْعُدُ عَنّا نَحْوَ سِتَّةٍ وَأَرْبَعينَ مِيلًا. كانَ عَلى جيمْس، وَهُوَ شابٌّ تَوَلّى جون تَدْريبَهُ عَلى سِياسَةِ الْخَيْلِ وَقِيادَةِ الْعَرَباتِ، أَنْ يَقودَ الْعَرَبَةَ الَّتي تَقَرَّرَ أَنْ يَشْتَرِكَ في جَرِّها جِنْجِرُ وَأَنا. كانَ يَعْتَرِضُ طَريقَنا تِلالٌ طَويلَةُ الْمَسالِكِ وَعْرَةٌ. لٰكِنَّ جيمْس قادَ الْعَرَبَةَ بِهُدوءٍ وَدِرايَةٍ فَلَمْ نَتَضايَقْ.

وَصَلْنا مَساءً الْبَلْدَةَ الَّتي كانَ مُقَرَّرًا أَنْ نَقْضِيَ فيها لَيْلَتَنا. كانَ النُّزُلُ في وَسَطِ الْبَلْدَةِ. وَكانَ نُزُلًا كَبيرًا، دَخَلْنا إِلى ساحَةِ إِسْطَبْلِهِ عَبْرَ مَمَرٍّ مُقَنْطَرٍ.

وَسُرْعانَ ما أَقْبَلَ سائِسا خَيْلٍ لِأَخْذِنا. تَوَلّى السّائِسُ الْكَبيرُ أَمْري، وَتَوَلّى الْآخَرُ أَمْرَ جِنْجِر. كانَ لِلسّائِسِ الْكَبيرِ رِجْلٌ مُعْوَجَّةٌ. وَكانَ يَلْبَسُ صُدْرِيَّةً مُخَطَّطَةً. وَسُرْعانَ ما أَزالَ عَنّي تَعَبَ السَّفَرِ بِمَهارَةٍ وَرِعايَةٍ لَمْ أَعْهَدْهُما في أَحَدٍ سِواهُ مِنْ قَبْلُ. كانَ رَجُلًا خَبيرًا بِالْخُيولِ.

وَبَيْنَما كانَ يَقومُ بِالْعِنايَةِ بي سَمِعْتُهُ يُخاطِبُ السّائِسَ الْآخَرَ قائِلًا: «سَلِّمْني الْخَيْلَ عِشْرينَ دَقيقَةً فَأَعْرِفَ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ السُّوّاسِ يَتَوَلّى شَأْنَها. أُنْظُرْ إِلى هٰذا الْجَوادِ، مَثَلًا، فَإِنَّهُ أَنيسٌ وَديعٌ، يَتَّجِهُ حَيْثُ تَشاءُ، وَيَرْفَعُ قائِمَتَهُ إِلى أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ تَنْظيفِها وَيُطيعُكَ في كُلِّ ما تَطْلُبُ مِنْهُ. وَهُوَ يَخْتَلِفُ في ذٰلِكَ كُلَّ الِاخْتِلافِ عَنِ الْجِيادِ التّاعِسَةِ الَّتي تُساءُ مُعامَلَتُها وَلا يُعْتَنى بِها الْعِنايَةَ الصَّحيحَةَ.»

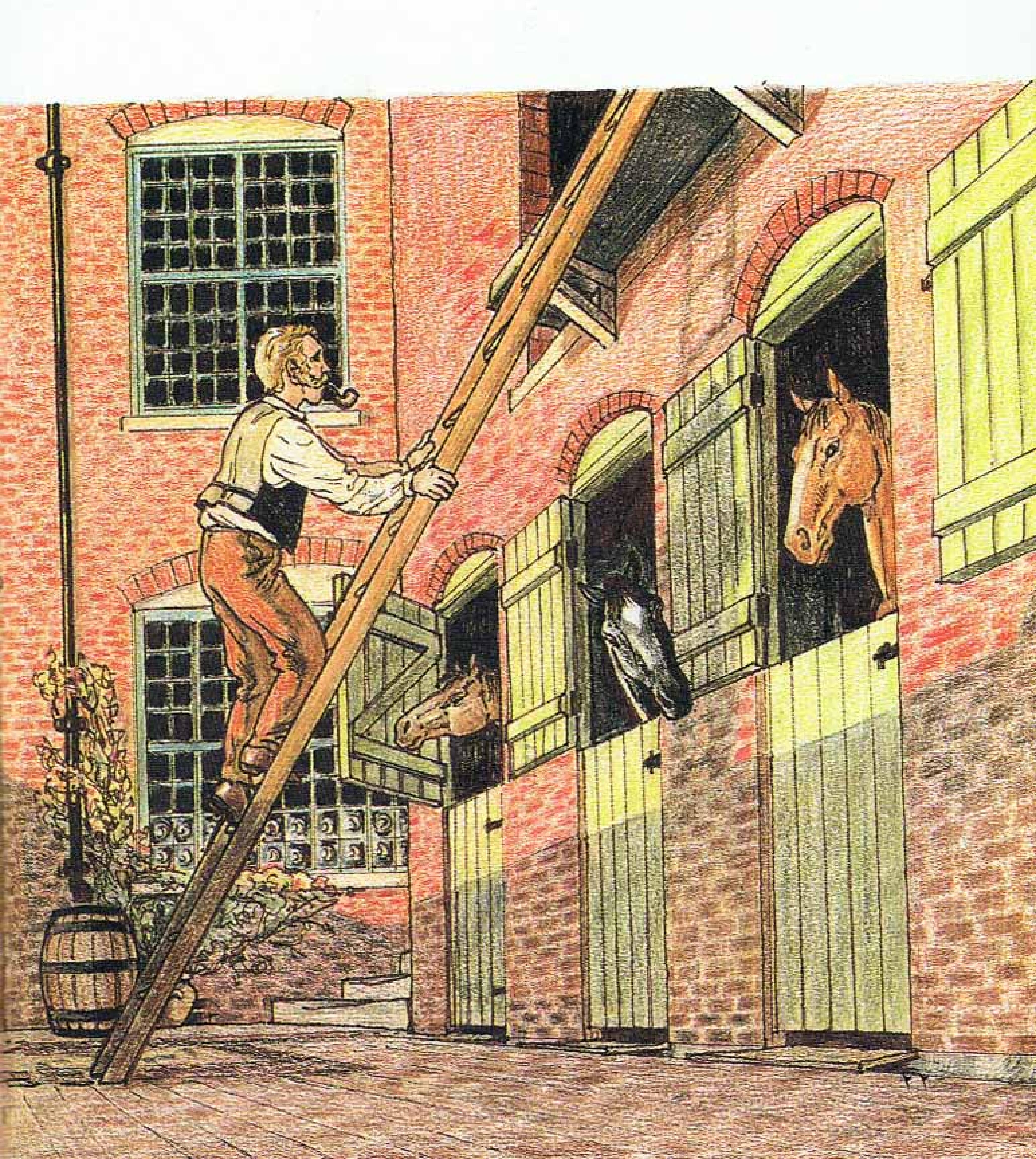
عِنْدَما عَلِمَ أَنَّ مالِكَنا هُوَ السَّيِّدُ غورْدُن قالَ إِنَّهُ قَرَأَ في الْجَريدَةِ حادِثَةَ الصَّيْدِ الَّتي ذَهَبَ ضَحِيَّتَها ابْنُهُ. فَهِمْتُ عِنْدَئِذٍ مِنْ حَديثِهِما أَنَّ الْجَوادَ الْأَسْوَدَ الَّذي هَلَكَ في تِلْكَ الْحادِثَةِ كانَ أَخي.



فِي ذٰلِكَ الْمَساءِ جَلَبَ السّائِسُ الثّاني إلى الْإِسْطَبْلِ جَوادًا آخَرَ، وَجَعَلَ يُنَظِّفُهُ. في هٰذِهِ الْأَثْناءِ وَصَلَ شابٌّ يُدَخِّنُ غَلْيونًا. قالَ السّائِسُ لِذٰلِكَ الشّابِّ:

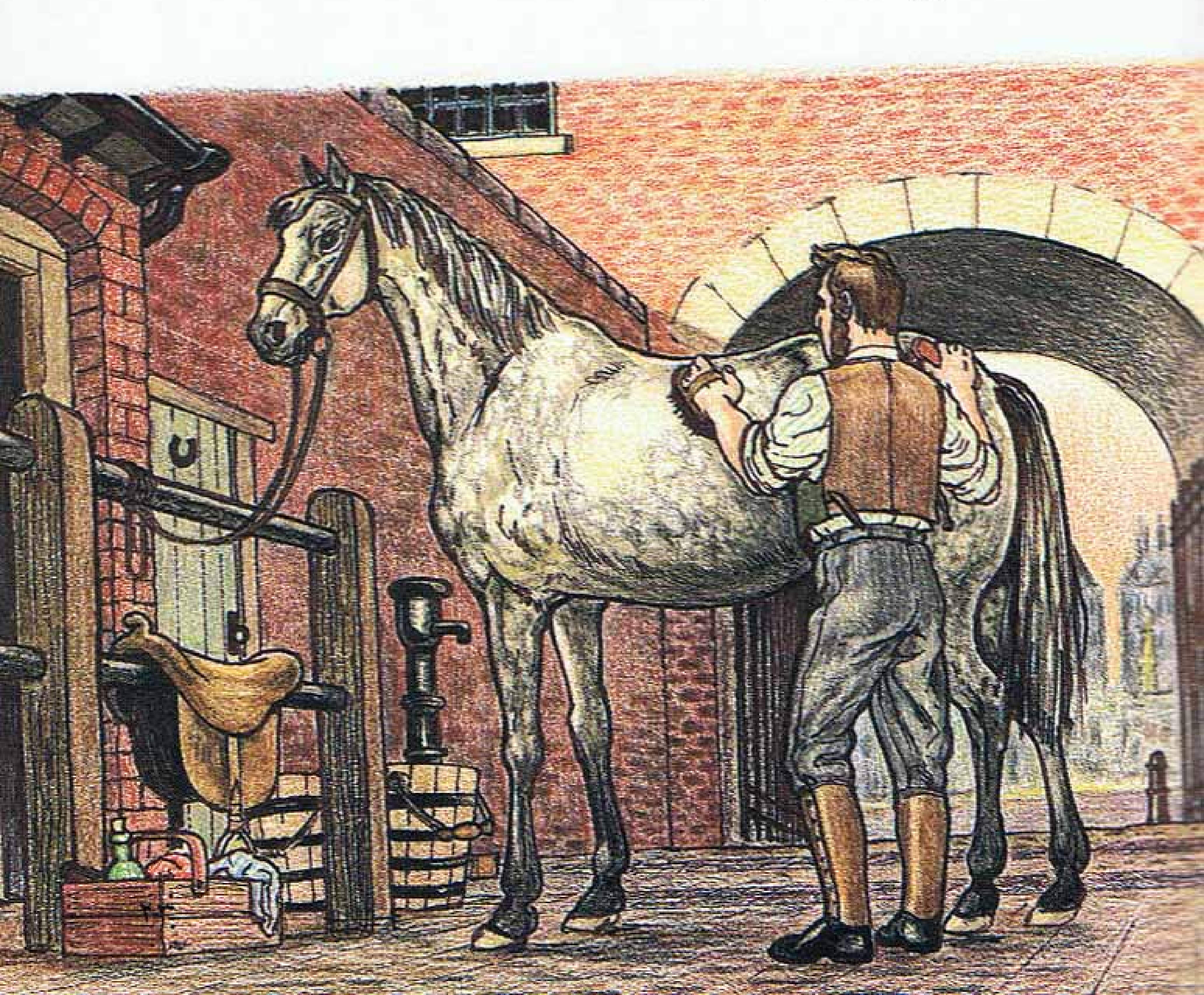
«اِصْعَدْ إلى السُّدَّةِ وَهاتِ لِذٰلِكَ الْحِصانِ قَشًّا!»

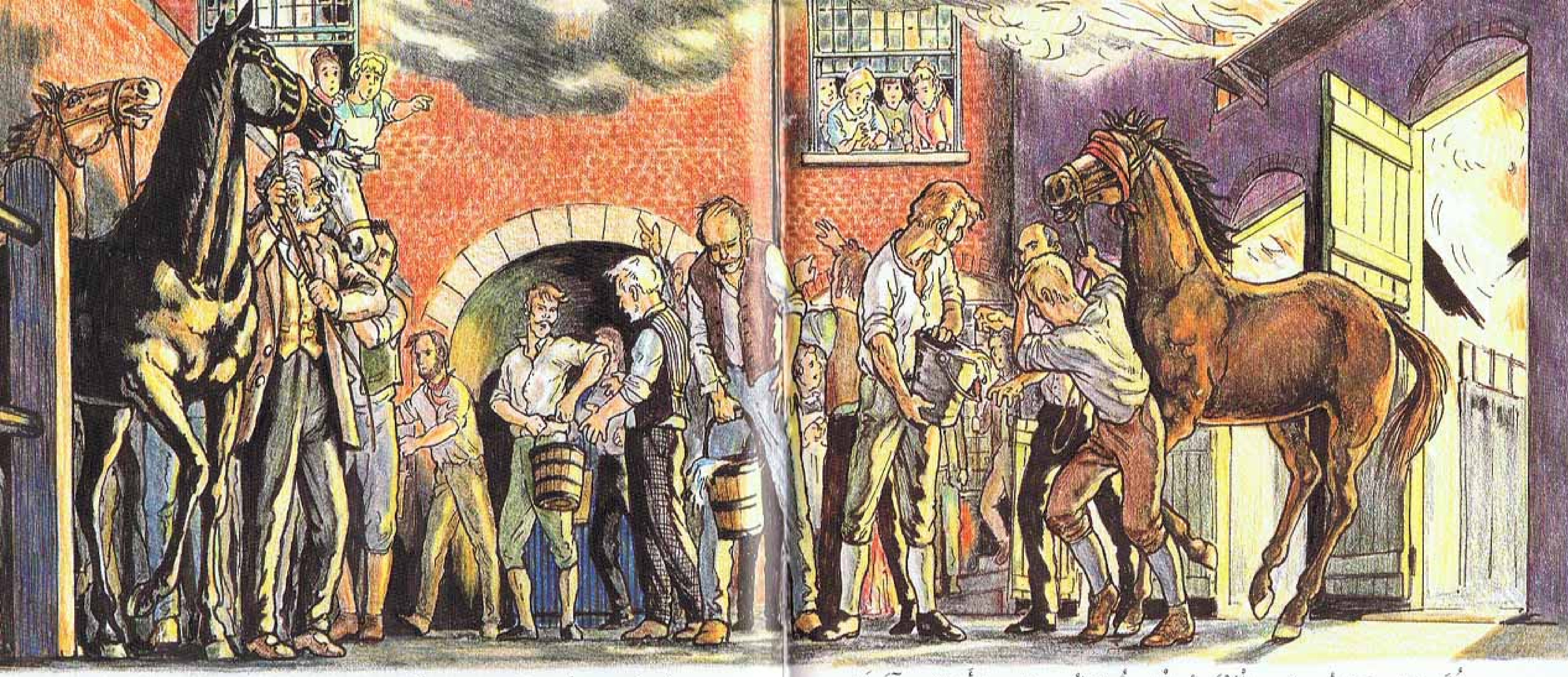
نَصَبَ الشّابُّ سُلَّمًا تَسَلَّقَهُ وَدَخَلَ السُّدَّةَ مِنْ بابِها الْعُلْوِيِّ.



لا أَعْرِفُ كَمْ مِنَ الْوَقْتِ نِمْتُ. لٰكِنْ عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كُنْتُ في ضيقٍ شَديدٍ. كانَ الْهَواءُ ثَقيلًا، وَبَدا لي أَنّي أَخْتَنِقُ. كانَ بابُ السُّدَّةِ الْعُلْوِيُّ لا يَزالُ مَفْتوحًا. سَمِعْتُ خِلالَهُ صَوْتَ فَرْقَعَةٍ وَطَقْطَقَةٍ وَهَسْهَسَةٍ مُريبَةٍ. جَعَلْتُ أَرْتَعِشُ، وَراحَتِ الْخُيولُ كُلُّها تَشُدُّ بِأَرْبِطَتِها وَتَخْبِطُ الْأَرْضَ.

جاءَ السّائِسُ الثّاني عَلى عَجَلٍ وَراحَ يَحُلُّ أَرْبِطَةَ الْخَيْلِ. لٰكِنَّهُ كانَ هُوَ نَفْسُهُ مَذْعورًا، وَلَمْ يَقْبَلْ أَيٌّ مِنَ الْخُيولِ الاِنْقِيادَ لَهُ. كُنّا بُلَهاءَ. لٰكِنَّ ذُعْرَهُ الْبادي كانَ قَدْ أَصابَنا بِالْعَدْوى فَلَمْ نَعُدْ نَعْرِفُ بِمَنْ نَثِقُ. وَارْتَفَعَتْ في الْخارِجِ صَيْحَةٌ تَقولُ: «حَريقٌ!» رَأَيْتُ ضَوْءًا قِرْمِزِيًّا يَتَراقَصُ عَلى الْجِدارِ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ هَديرٍ مُريعٍ. في هٰذا الْوَقْتِ وَصَلَ السّائِسُ الْعَجوزُ، فَأَخْرَجَ في سُرْعَةٍ وَهُدوءٍ حِصانًا، وَأَسْرَعَ إِلى حِصانٍ آخَرَ.





ثُمَّ جاءَني صَوْتُ جيمْس الْمُنْشَرِحُ الْهادِئُ يَقولُ: «هَيّا، يا أَحِبّائي، آنَ لَنا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ هُنا. هَيّا بِنا.»

اِقْتَرَبْتُ وَوَقَفْتُ مُلاصِقًا لِلْبابِ، فَوَصَلَ إِلَيَّ أَوَّلًا وَرَبَّتَ جَسَدي مُطَمْئِنًا. وَسُرْعانَ ما كانَ قَدْ أَمْسَكَ بِلِجامي. ثُمَّ لَفَّ شالَهُ حَوْلَ عَيْنَيَّ بِرِفْقٍ لِيَمْنَعَ عَنّي مَشْهَدَ النّارِ، وَقادَني إِلى خارِجِ الْإِسْطَبْلِ.

رَفَعَ الشّالَ عَنْ عَيْنَيَّ، وَسَلَّمَ قِيادِيَ إِلى شَخْصٍ غَيْرِهِ وَتَرَكَني. فَصَهَلْتُ مُحْتَجًّا. وَعَلِمْتُ فيما بَعْدُ أَنَّ تِلْكَ الصَّهْلَةَ قَدْ أَنْقَذَتْ حَياةَ جِنْجِر. فَإِنَّها لَوْ لَمْ تَسْمَعْ صَهْلَتي الْآتِيَةَ مِنْ خارِجِ الْإِسْطَبْلِ لَما وَجَدَتْ هِيَ الشَّجاعَةَ لِتَخْرُجَ مِنْهُ.

اِمْتَلَأَتِ السّاحَةُ جَلَبَةً وَاضْطِرابًا، بَيْنَما كانَ الرِّجالُ يَعْمَلونَ عَلى إِخْراجِ الْجِيادِ

مِنَ الْإِسْطَبْلاتِ الْمُحْتَرِقَةِ وَعَرَباتِ الْخَيْلِ مِنْ حَظائِرِها. وَسَمِعْتُ وَسْطَ الصَّخَبِ صَوْتَ سَيِّدي يَصيحُ:

«جيمْس! جيمْس! أَأَنْتَ هُنا؟» سَمِعْنا عِنْدَها صَوْتَ شَيْءٍ يَنْحَطِمُ في الْإِسْطَبْلِ وَيَتَداعى. لٰكِنْ في اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ، رَأَيْنا جيمْس يَخْرُجُ مِنْ وَسَطِ الدُّخانِ، وَمَعَهُ جِنْجِر. كانَتْ جِنْجِرُ تَسْعُلُ سُعالًا شَديدًا، أَمّا جيمْس فَيَكادُ لا يَقْوى عَلى الْكَلامِ.

قالَ سَيِّدي: «يا وَلَدي الشُّجاعَ. حالَما تَلْتَقِطُ أَنْفاسَكَ سَنَخْرُجُ مِنْ هٰذا الْمَكانِ.»

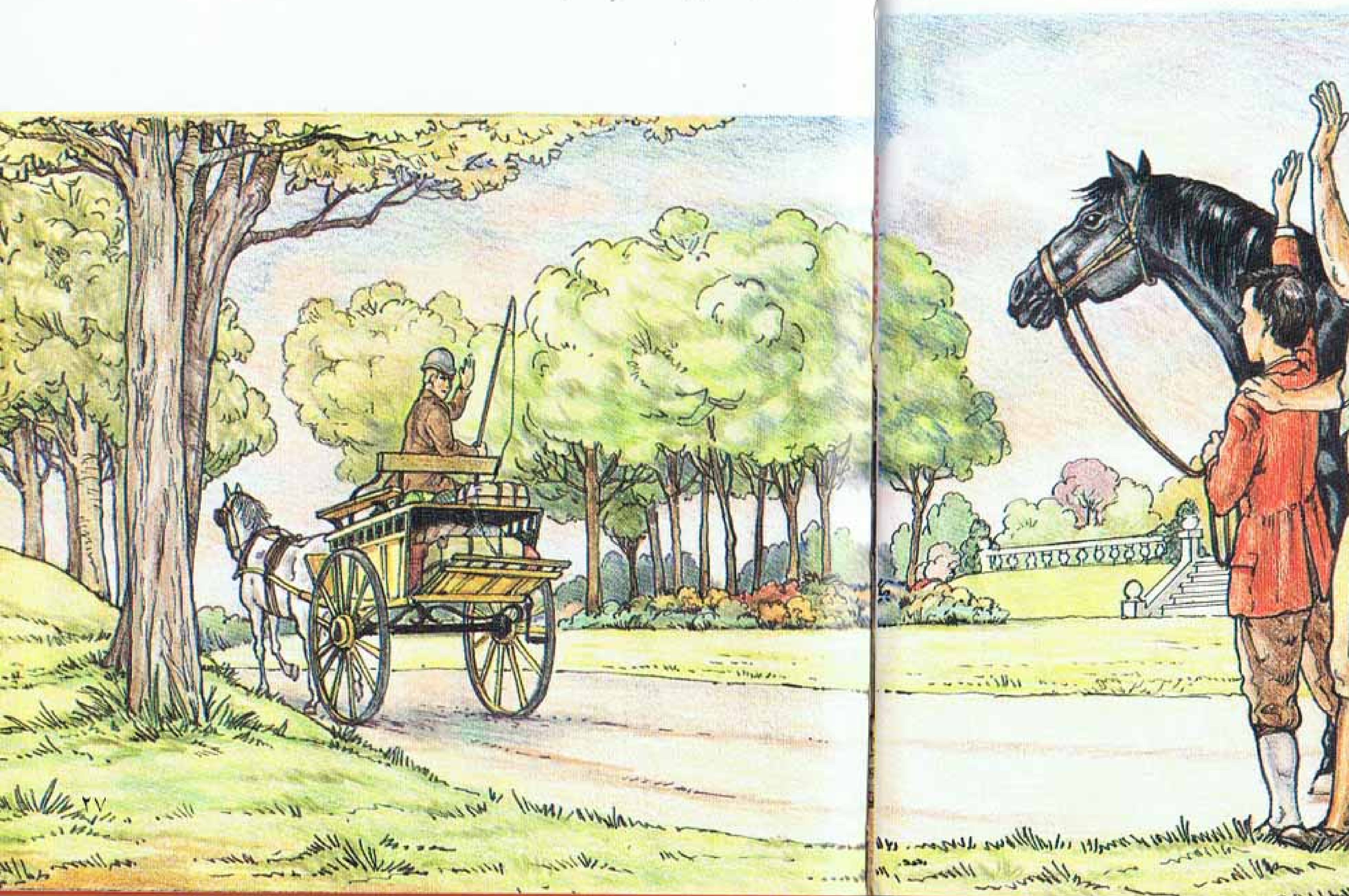
وَبَيْنَما كُنّا نَهُمُّ بِالرَّحيلِ رَأَيْنا عَرَبَةَ الْإِطْفاءِ مُقْبِلَةً تَجُرُّها الْخُيولُ.

وُضِعْنا في إسْطَبْلاتِ نُزُلٍ آخَرَ. كانَ سَيِّدي فَخورًا بِجيمْس. وَكانَ جيمْس في صَباحِ الْيَوْمِ التّالي مُنْشَرِحًا. لٰكِنَّ اللَّيْلَةَ الْماضِيَةَ كانَتْ مُريعَةً، وَماتَ في الْحَريقِ جَوادانِ. وَقَدْ رَأى الْجَميعُ أَنَّ ذٰلِكَ الشّابَّ الَّذي صَعِدَ إلى سُدَّةِ الْقَشِّ هُوَ الْمَسْؤولُ عَنِ اشْتِعالِ ذٰلِكَ الْحَريقِ الْجائِحِ، فَلا بُدَّ أَنَّ النّارَ قَدِ انْتَقَلَتْ إلى الْقَشِّ مِنْ غَلْيونِهِ الْمُشْتَعِلِ.

كانَتْ بَقِيَّةُ رِحْلَتِنا مُيَسَّرَةً، وَصَلْنا بَعْدَها إلى مَنْزِلِ صَديقِ سَيِّدِنا وَأَقَمْنا هُناكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ.

عِنْدَما عُدْنا، سَمِعْنا جون مانْلي يَقولُ لِجيمْس إنَّهُ سَيُدَرِّبُ فَتًى اسْمُهُ لِتِل جو لِيَحِلَّ مَحَلَّهُ. فَقَدْ كانَ جيمْس قَدْ أَوْشَكَ عَلى إكْمالِ تَدْريبِهِ، وَرَأى سَيِّدُنا أَنْ يُلْحِقَهُ بِخِدْمَةِ أَحَدِ أَصْدِقائِهِ. وَكانَ مِثْلُ هٰذا الْأَمْرِ يُحَمِّلُ جون عِبْئًا أَكْبَرَ مِنَ الْعَمَلِ. فَلَقَدْ كانَ لِتِل جو صَغيرًا لا يَسْتَطيعُ الْقِيامَ بِسِياسَةِ الْجِيادِ.

عَلى أَنَّ جون كانَ رَجُلًا طَيِّبًا. يَذْكُرُ أَنَّهُ أُتيحَ لَهُ، عِنْدَما كانَ صَغيرًا، مُدَرِّبٌ قَديرٌ صَبورٌ، بَذَلَ مَعَهُ، عَلى الرُّغْمِ مِنْ فَقْرِهِ، وَقْتَهُ وَجَهْدَهُ. وَأَحَسَّ جون لِهٰذا أَنَّ دَوْرَهُ جاءَ لِيَقومَ بِفِعْلِ خَيْرٍ. وَقَدْ تَرَكْنا جيمْس بِقَلْبٍ مُثْقَلٍ عَلى الرُّغْمِ مِمّا يَنْتَظِرُهُ مِنْ مُسْتَقْبَلٍ زاهِرٍ.



كُنْتُ في بَعْضِ اللَّيالي، بُعَيْدَ أَنْ غادَرَنا جيمْس، قَدْ أَكَلْتُ طَعامي وَتَمَدَّدْتُ عَلى الْقَشِّ لِأَنامَ. فَجْأَةً قُرِعَ جَرَسُ الْإِسْطَبْلِ قَرْعًا شَديدًا فَهَبَبْتُ واقِفًا. سَمِعْتُ خُطُواتِ جون تَتَّجِهُ صَوْبَ الْقَصْرِ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ يَعودُ مُسْرِعًا وَيَفْتَحُ بابَ الْإِسْطَبْلِ وَيَتَّجِهُ إِلى مَقْسَمي. وَسُرْعانَ ما وَضَعَ السَّرْجَ عَلى ظَهْري وَوَضَعَ اللِّجامَ في فَمي وَقادَني إِلى بَوّابَةِ الْمَنْزِلِ. كانَ سَيِّدي يَقِفُ هُناكَ وَفي يَدِهِ مِصْباحٌ. قالَ:

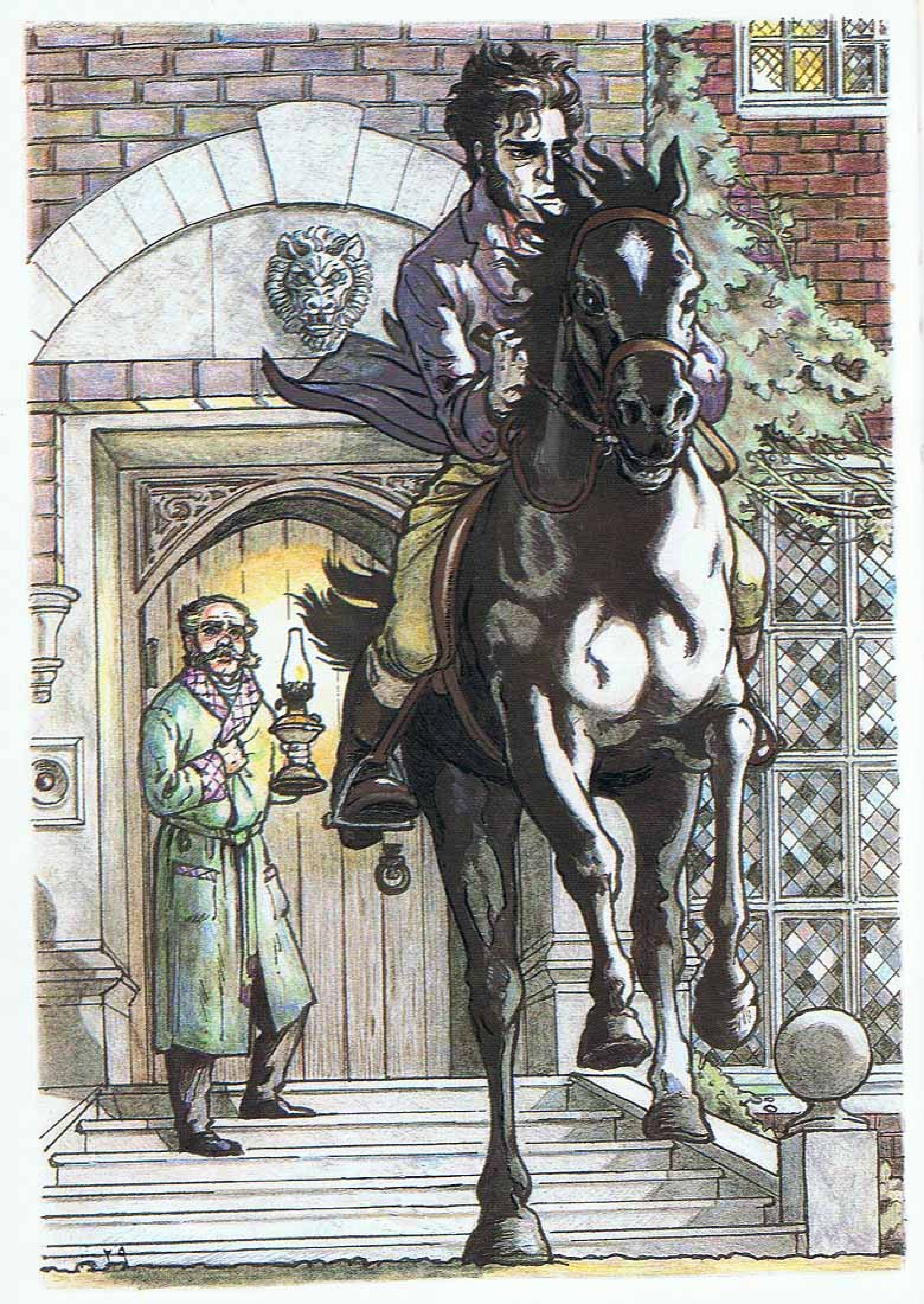
«الآنَ يا جون. إِجْرِ جَرْيَ رَجُلٍ يَنْجو بِحَياتِهِ. إِذا كانَ لَنا أَنْ نُنْقِذَ سَيِّدَتَكَ فَلَيْسَ عِنْدَنا لَحْظَةٌ واحِدَةٌ نُضَيِّعُها. أَعْطِ هٰذِهِ الْوَرَقَةَ إِلى الدُّكْتورِ وايْت. أَرِحْ جَوادَكَ في النُّزُلِ وَعُدْ إِلَيْنا في أَقْصى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ.»

قالَ جون: «حاضِرْ، يا سَيِّدي!» ثُمَّ قَفَزَ إِلى ظَهْري، وَهُوَ يَقولُ: «وَالْآنَ، يا بْيوتي، أَرِني قُدْرَتَكَ!»

لَمْ أَكُنْ مُحْتاجًا إِلى سَوْطٍ أَوْ مِهْمازٍ، وَرُحْتُ أَعْدو سَريعًا أَكادُ لا أَطَأُ الثَّرى. كانَ الْجَوُّ مُشْبَعًا بِالصَّقيعِ وَكانَ الْقَمَرُ ساطِعًا. واصَلْنا انْطِلاقَنا صُعودًا وَنُزولًا مَسافَةَ ثَمانِيَةِ أَمْيالٍ وَصَلْنا بَعْدَها إِلى مَنْزِلِ الطَّبيبِ وايْت في وَسَطِ الْبَلْدَةِ الْمُجاوِرَةِ.

دَقَّتْ ساعَةُ السّاحَةِ ثَلاثَ دَقّاتٍ في اللَّحْظَةِ الَّتي كانَ جون يَخْبِطُ فيها بَوّابَةَ مَنْزِلِ الطَّبيبِ. وَقَدْ وافَقَ الطَّبيبُ عَلى الْمَجيءِ مَعَنا فَوْرًا. لٰكِنَّ جَوادَهُ لَمْ يَكُنْ يَصْلُحُ لِلرِّحْلَةِ. فَوافَقَ جون عَلى أَنْ أَحْمِلَهُ أَنا، وَلٰكِنْ كانَ ذٰلِكَ يَعْني أَلّا أَنالَ أَنا الرّاحَةَ الَّتي كُنْتُ في أَشَدِّ الْحاجَةِ إِلَيْها.

لَمْ تَكُنْ رِحْلَةُ الْعَوْدَةِ لَطيفَةً، فَقَدْ كانَ الطَّبيبُ أَثْقَلَ وَزْنًا مِنْ جون وَأَقَلَّ مَهارَةً في الرُّكوبِ. لٰكِنّي سَعَيْتُ جَهْدي. وَعِنْدَما وَصَلْتُ الْمَنْزِلَ كُنْتُ مُنْهَكًا، أَرْتَجِفُ وَأَتَصَبَّبُ عَرَقًا.



قادَني لِتِل جو إلى الْإسْطَبْلِ. أنا واثِقٌ أَنَّهُ سَعى جَهْدَهُ. لٰكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَجوزُ أَنْ يَسْقِيَني ماءً بارِدًا وَلا أَنْ يَتْرُكَني دونَ أَنْ يَضَعَ عَلَيَّ غِطاءً دافِئًا. وَعِنْدَما وَصَلَ جون إلى الْبَيْتِ كانَ جَسَدي كُلُّهُ يُؤْلِمُني وَكُنْتُ أَلْتَهِبُ حَرارَةً. أَعْطاني جون مِنْ فَوْرِهِ شَرابًا ساخِنًا وَغَطّاني. لٰكِنَّ الْعِلَّةَ كانَتْ في ذٰلِكَ الْوَقْتِ قَدْ تَمَكَّنَتْ مِنّي وَلَمْ أَعُدْ مَعَها أَقْوى على التَّنَفُّسِ مِنْ غَيْرِ وَجَعٍ. رَعاني جون لَيْلًا وَنَهارًا، وَكانَ سَيِّدي يَتَرَدَّدُ عَلَيَّ. وَذاتَ يَوْمٍ قالَ لي:

«يا جَوادِيَ الْمِسْكينَ. يا جَوادِيَ الطَّيِّبَ. أَنْتَ أَنْقَذْتَ حَياةَ سَيِّدَتِكَ!»

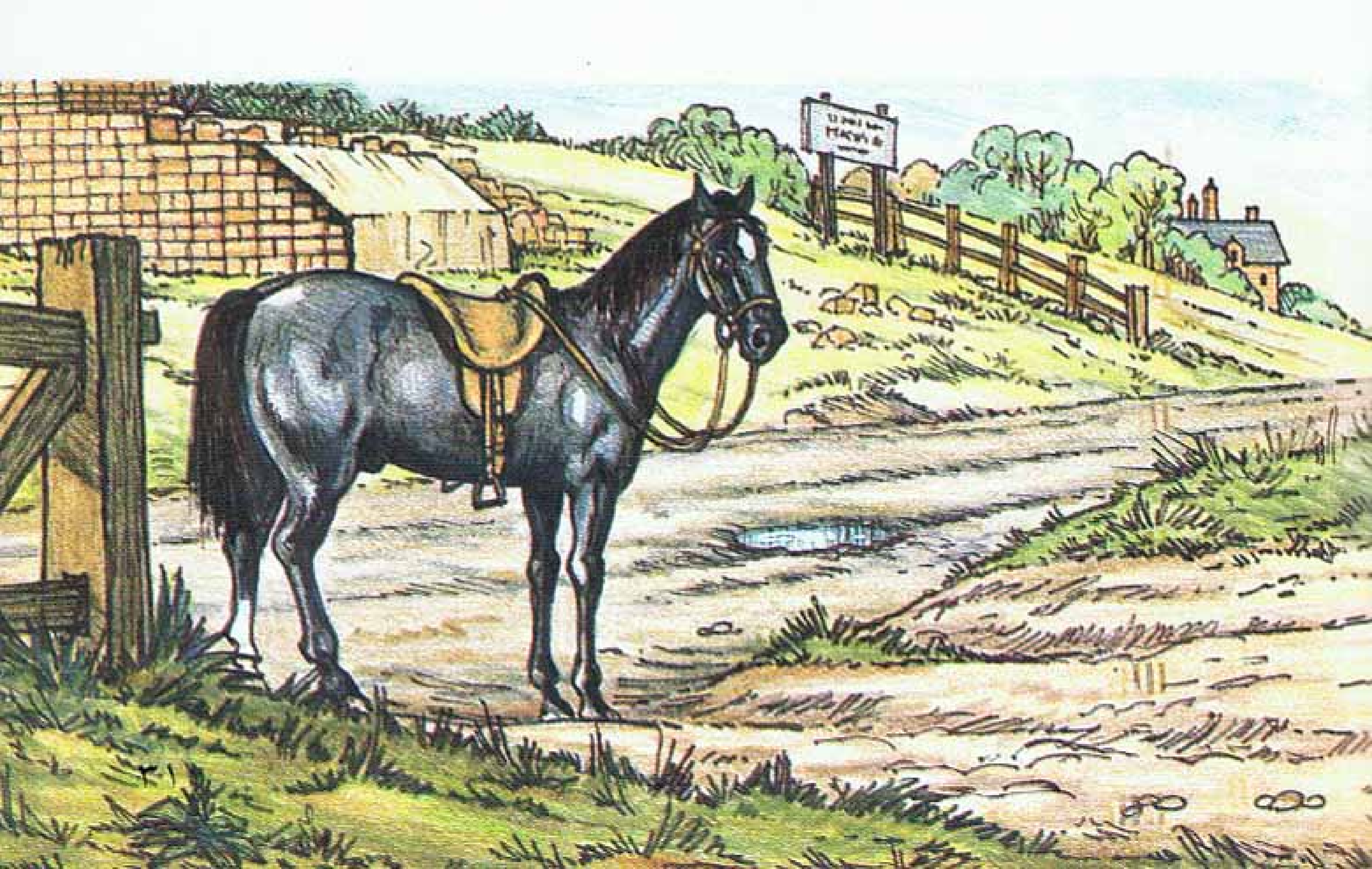


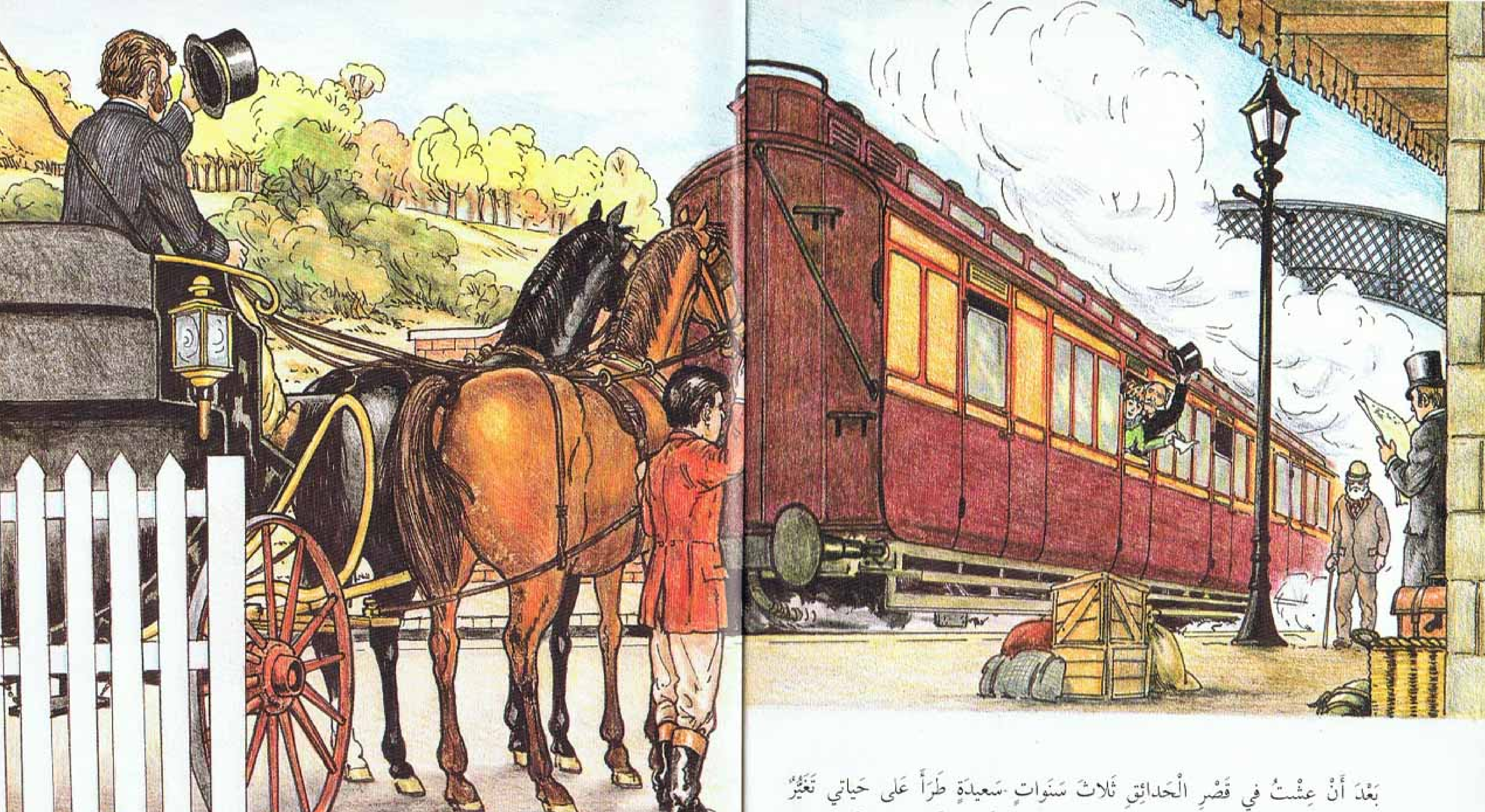
أَسْعَدَتْني جِدًّا تِلْكَ الْكَلِماتُ. لٰكِنْ كانَتْ طَريقُ شِفائي طَويلَةً. وَقَدْ حَلَّ بِلِتِل جو كَدَرٌ شَديدٌ لِما كانَ مِنْ جَهْلِهِ، وَما تَسَبَّبَ بِهِ ذٰلِكَ الْجَهْلُ مِنْ أَذِيَّتي. لٰكِنَّ شُعورَهُ ذاكَ كانَ حافِزًا عَلى الْعَمَلِ الشّاقِّ وَالتَّعَلُّمِ السَّريعِ. وَسُرْعانَ ما أَصْبَحَ عَنْ حَقٍّ فَخورًا بِنَفْسِهِ. وَاتَّفَقَ ذاتَ يَوْمٍ أَنِ الْتَقى سائِقَ عَرَبَةِ نَقْلٍ يَضْرِبُ جَوادَيْهِ بِالسَّوْطِ ضَرْبًا مُبَرِّحًا. وَلَمْ يَكُنِ الْجَوادانِ قادِرَيْنِ عَلى جَرِّ الْعَرَبَةِ الْمُحَمَّلَةِ بِالْحِجارَةِ وَإِخْراجِها مِنَ الطّينِ الشَّديدِ الَّذي غَرَزَتْ فيهِ.

اِحْتَجَّ لِتِل جو، دونَ جَدْوى، عَلى قَساوَةِ الرَّجُلِ. بَلْ عَرَضَ أَنْ يُساعِدَهُ في إِنْزالِ بَعْضِ الحِمْلِ عَنِ الْعَرَبَةِ لِلتَّخْفيفِ عَنِ الْجَوادَيْنِ. فَما كانَ مِنَ السّائِقِ إِلّا أَنْ قالَ:

«لا تَتَدَخَّلْ في ما لا يَعْنيكَ، أَيُّها الْوَلَدُ الْوَغْدُ الْوَقِحُ!»

تَرَكَ لِتِل جو الْعَرَبَةَ وَصاحِبَها وَذَهَبَ إِلى سَيِّدِنا، وَكانَ قاضِيًا، وَشَكا لَهُ الْأَمْرَ. فَاسْتُدْعِيَ السّائِقُ إِلى الْمَحْكَمَةِ، وَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالْحَبْسِ شَهْرَيْنِ جَزاءَ إِساءَتِهِ مُعامَلَةَ الْحَيَوانِ.





بَعْدَ أَنْ عِشْتُ في قَصْرِ الْحَدائِقِ ثَلاثَ سَنَواتٍ سَعيدَةٍ طَرَأَ عَلى حَياتي تَغَيُّرٌ مُحْزِنٌ. فَقَدْ كانَتْ سَيِّدَتُنا كَثيرَةَ التَّوَعُّكِ، وَنَصَحَ الطَّبيبُ أَنْ تَنْتَقِلَ لِلْعَيْشِ في بِلادٍ دافِئَةٍ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثَ سَنَواتٍ. وَكانَ عَلى سَيِّدِنا أَنْ يُسافِرَ مَعَها. وَقَدْ تَقَرَّرَ أَنْ يُصْرَفَ مُوَظَّفو الْقَصْرِ، وَأَمّا نَحْنُ الْجِيادَ، فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنْ نُباعَ. إِلّا مَرْلَغ، فَقَدْ كانَ مَحْظوظًا إِذْ وَهَبَهُ سَيِّدُنا إِلى مُخْتارِ الْبَلْدَةِ شَرْطَ أَلّا يُباعَ أَبَدًا. وَكُنّا أَنا وَجِنْجِر مِنْ نَصيبِ صَديقٍ مِنْ أَصْدِقاءِ سَيِّدِنا. وَقَدْ ظَنَّ سَيِّدُنا أَنَّنا سَنَعيشُ مَعَ ذٰلِكَ الصَّديقِ عيشَةً طَيِّبَةً.

ثُمَّ حَلَّ يَوْمُ الْفِراقِ. جَرَرْنا أَنا وَجِنْجِرُ الْعَرَبَةَ إِلى بابِ الْقَصْرِ لِآخِرِ مَرَّةٍ وَحَمَلْنا سَيِّدَنا وَسَيِّدَتَنا إِلى مَحَطَّةِ الْقِطارِ. كانَ جون مانْلي وَلِتِل جو مَعَنا، وَكانا كِلاهُما يُغالِبانِ الدُّموعَ.

في صَباحِ الْيَوْمِ التّالي مَضى جون مانْلي بِنا، أنا وَجِنْجِر، إلى قَصْرِ سَيِّدنا الْجَديدِ الَّذي كانَ يَبْعُدُ نَحْوَ خَمْسَةَ عَشَرَ ميلًا. وَكانَ الْقَصْرُ بَديعًا، وَأَمّا الإِسْطَبْلُ فَكانَ فَسيحًا مُضيئًا نَقِيَّ الْهَواءِ. وَقَدْ وُضِعْنا أنا وجِنْجِر في مَقْسَمَيْنِ مُتَجاوِرَيْنِ. وَجاءَ السَّيِّدُ يورْك، سائِسُنا الْجَديدُ، لِيَتَفَحَّصَنا.

أَوْضَحَ جون لِلسّائِسِ أَنَّهُ لَمْ يُسْتَخْدَمْ مَعَنا في مَنْزِلِنا السّابِقِ الْعِنانُ الرّافِعُ، الَّذي كانَ يُجْبِرُ الْجَوادَ عَلى إِبْقاءِ رَأْسِهِ مَرْفوعًا. وَأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ في طَبْعِ جِنْجِر بَعْضَ النَّزَقِ بِسَبَبِ ما تَعَرَّضَتْ لَهُ مِنْ أَذى ذٰلِكَ الْعِنانِ في أَوَّلِ حَياتِها. وَقَدْ شَدَّدَ جون عَلى أَنَّ جِنْجِرَ عَصَبِيَّةُ الْمِزاجِ سَريعَةُ الْغَضَبِ وَهِيَ في ذٰلِكَ تَخْتَلِفُ عَنّي مِزاجًا، لٰكِنَّنا كِلَيْنا جَوادانِ يُرْكَنُ إِلَيْهِما.

قالَ السَّيِّدُ يورْك إِنَّهُ سَيُعْطي مُلاحَظاتِهِ قَدْرَها مِنَ الاهْتِمامِ، لٰكِنَّ سَيِّدَتَنا الْجَديدَةَ تَحْرِصُ عَلى أَنْ تَرى خُيولَها مَرْفوعَةَ الرَّأْسِ أَبَدًا، كَما يَقْضي الزِّيُّ، وَلا صَبْرَ لَها عَلى الْجِيادِ الَّتي تَتَنَكَّبُ عَنْ ذٰلِكَ.

سُرْعانَ ما اكْتَشَفْتُ ما يُسَبِّبُهُ الْعِنانُ الرّافِعُ مِنْ أَوْجاعٍ. فَإِنَّهُ عَلى الرُّغْمِ مِنْ رَغْبَةِ سَيِّدِ الْقَصْرِ، فَقَدْ حَمَلَتِ السَّيِّدَةُ زَوْجَتُهُ السّائِسَ عَلى أَنْ يُقَصِّرَ الْعِنانَ كَثيرًا. كانَ عَلَيْنا في يَوْمٍ أَنْ نَصْعَدَ بِالْعَرَبَةِ مُرْتَفَعًا. وَلَمّا كانَ عَلَيْنا أَنْ نُبْقِيَ رَأْسَيْنا طَوالَ الْوَقْتِ مَرْفوعَيْنِ فَلَقَدْ وَقَعَ الْجانِبُ الأَكْبَرُ مِنَ الشَّدِّ عَلى ظَهْرَيْنا وَقَوائِمِنا لا عَلى مَناكِبِنا.

قالَتْ لي جِنْجِرُ ذٰلِكَ الْمَساءَ: «أَنْتَ تَعْرِفُ الآنَ طَعْمَ هٰذا الْعِنانِ، مَعَ أَنَّ السّائِقَةَ لَمْ تَقْسُ عَلَيْنا. إِذا لَمْ يَسْتَفْحِلِ الأَمْرُ سَأَظَلُّ ساكِتَةً. فَالْقَوْمُ هُنا يُعامِلونَنا أَحْسَنَ مُعامَلَةٍ. أَمّا إِذا بالَغوا في الشَّدِّ فَلَنْ أَحْتَمِلَ مِنْهُمْ ذٰلِكَ وَلَنْ أَسْكُتَ عَلَيْهِ.»



أَثْبَتَتْ جِنْجِرُ بَعْدَ أَيّامٍ أَنَّها عِنْدَ كَلِمَتِها. فَقَدْ نَزَلَتِ السَّيِّدَةُ يَوْمًا مِنَ الْقَصْرِ تَلْبَسُ ثَوْبًا حَرِيرِيًّا هَفْهافًا. أَمَرَتْ يورْك أَنْ يَقودَها إِلى مَنْزِلِ إِحْدى صَديقاتِها ثُمَّ قالَتْ، بَعْدَ هُنَيْهَةِ صَمْتٍ:

«أَلا تَنْوي أَنْ تَجْعَلَ هٰذَيْنِ الْجَوادَيْنِ يَرْفَعانِ يَوْمًا رَأْسَيْهِما، يا يورْك؟ اِرْفَعِ الرَّأْسَيْنِ حالًا، وَكَفى هُراءً!»



اِقْتَرَبَ يورْك أَوَّلًا مِنّي، وَرَدَّ رَأْسي إلى الْوَراءِ وَشَدَّ الْعِنانَ شَدًّا مُحْكَمًا، يَكادُ لا يُطاقُ. ثُمَّ مَشى إلى جِنْجِرَ الَّتي كانَتْ تَنْفُضُ رَأْسَها بِعَصَبِيَّةٍ. كانَتْ تَعْرِفُ ما يَنْتَظِرُها.

فَجْأَةً شَبَّتْ شَبَّةً عَظيمَةً وَراحَتْ تَرْفِسُ بِقَوائِمِها رَفْسًا يائِسًا. وَكانَ أَنْ أَصابَتْني إِحْدى رَفَساتِها. ثُمَّ وَقَعَتْ أَرْضًا، فَارْتَمى يورْك فَوْقَها لِيَتَمَكَّنَ مِنَ التَّحَكُّمِ بِها، وَأَمَرَ في الْوَقْتِ عَيْنِهِ أَنْ يُحَلَّ قِيادي، وَأَنْ يُؤْتى بِمِقَصٍّ يَقْطَعُ بِهِ رِباطَ جِنْجِرَ الَّذي يَشُدُّها إلى الْعَرَبَةِ.

كانَ عَلى سَيِّدَتي في ذٰلِكَ الْيَوْمِ أَنْ تُلازِمَ الْبَيْتَ. وَسَمِعْتُ يورْك مَساءً، وَقَدْ جاءَ يَعْتَني بي وَبِجِنْجِر، يُبْدي نَقْمَتَهُ عَلى الْعِنانِ الرّافِعِ وَعِنادِ سَيِّدَةِ الْقَصْرِ.

كانَتْ تِلْكَ آخِرَ مَرَّةٍ تَجُرُّ فيها جِنْجِرُ عَرَبَةً في ذٰلِكَ الْمَنْزِلِ. فَعِنْدَما شُفِيَتْ مِنْ رُضوضِها أُعْطِيَتْ إلى ابْنِ سَيِّدِ الْقَصْرِ الْأَصْغَرِ يَسْتَخْدِمُها في رِحْلاتِ صَيْدِهِ.

أَمّا أَنا فَقَدْ واصَلْتُ جَرَّ الْعَرَبَةِ، وَتَعاسَتي تَزْدادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. وَقَدْ جاءَني شَريكٌ جَديدٌ يَجُرُّ مَعي اسْمُهُ ماكْس. أَخْبَرَني ماكْس عَنْ أَهْلِ الْمُدُنِ وَما يَتَطَلَّبونَهُ في جِيادِ جَرِّ الْعَرَباتِ، قالَ:

«يَتَطَلَّبُ أَهْلُ الْمُدُنِ في جِيادِهِمْ أَنْ تَكونَ عالِيَةَ الرَّأْسِ. ذٰلِكَ، بِطَبيعَةِ الْحالِ، يُؤْذي الْجِيادَ أَذًى بالِغًا، لٰكِنَّهُ يُنَشِّطُ التِّجارَةَ. إِذْ سُرْعانَ ما تَهِنُ الْجِيادُ أَوْ تَدِبُّ بِها الْعِلَلُ، فَيُضْطَرُّ النّاسُ إلى اسْتِبْدالِها بِسِواها.»

أَحْسَسْتُ بِحُزْنٍ عَميقٍ، وَخُصوصًا أَنّي لَمْ أَلْمِسْ في يورْك رَغْبَةً قَوِيَّةً في مُساعَدَتِنا.



في أوائِلِ الرَّبيعِ سافَرَ سَيِّدُ الْقَصْرِ وَسَيِّدَتُهُ إلى مَقَرِّهِما في الْمَدينَةِ. وَكُلِّفَ بِأَمْرِنا، أنا وَجِنْجِر، رَئيسُ السُّوّاسِ. كانَ لا يَزالُ في الْقَصْرِ آنِسَتانِ هُما هارييت وَآن. وَكانَتْ آن فارِسَةً بارِعَةً عَطوفًا اخْتارَتْني لِلرُّكوبِ وَأَسْمَتْني بْلاك أوسْتِر. وَلَقَدْ قَضَيْتُ في صُحْبَتِها أَوْقاتًا طَيِّبَةً. وَكَثيرًا ما كانَ يُرافِقُها أَخوها أو واحِدٌ مِنْ أَبْناءِ عَمِّها على جِنْجِر أَوْ لِزي.

كانَتْ لِزي فَرَسًا رائِعَةً، لٰكِنَّها عَصَبِيَّةٌ مُتَوَفِّزَةٌ. وَكانَتِ الْفَرَسَ الْمُفَضَّلَةَ عِنْدَ واحِدٍ مِنْ نُزَلاءِ الْقَصْرِ اسْمُهُ الْكولونيلُ بْلانْتاير. ذاتَ يَوْمٍ، كانَ عَلى بْلانْتاير وَآن أَنْ يَقوما بِرِحْلَةٍ قَصيرَةٍ. فَخَطَرَ لِآن في ذٰلِكَ الْيَوْمِ أَنْ تَرْكَبَ هِيَ لِزي. وَهٰكَذا تَبادَلَ الْفارِسانِ فَرَسَيْهِما. وَكانَتْ لِزي في رِحْلَةِ الذَّهابِ مِثالَ الْفَرَسِ النَّبيهَةِ الْمُطيعَةِ. لٰكِنْ حَدَثَ أَنْ تَوَقَّفَ بْلانْتاير لَحْظَةً عِنْدَ مَنْزِلِ طَبيبِ الْبَلْدَةِ، فَرَبَطَني وَدَخَلَ الْمَنْزِلَ. وَظَلَّتْ آنْ عَلى فَرَسِها لِزي. في هٰذِهِ الْأَثْناءِ مَرَّتْ بَعْضُ الْخُيولِ الْجانِحَةِ وَصَدَمَتْ لِزي الَّتي أَرْعَبَتْها الْمُفاجَأَةُ، فَقَفَزَتْ بِفارِسَتِها وَشَرَدَتْ تَجْري بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ. وَلَمّا كُنْتُ مَرْبوطًا إلى عَمودٍ لَمْ يَكُنْ أَمامي ما أَفْعَلُهُ إلّا أَنْ أَصْهَلَ صَهْلَةً حادَّةً طَلَبًا لِلنَّجْدَةِ. خَرَجَ الْكولونيلُ بْلانْتاير مِنْ فَوْرِهِ وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى كُنّا مُنْطَلِقَيْنِ وَراءَ الْآنِسَةِ آن.

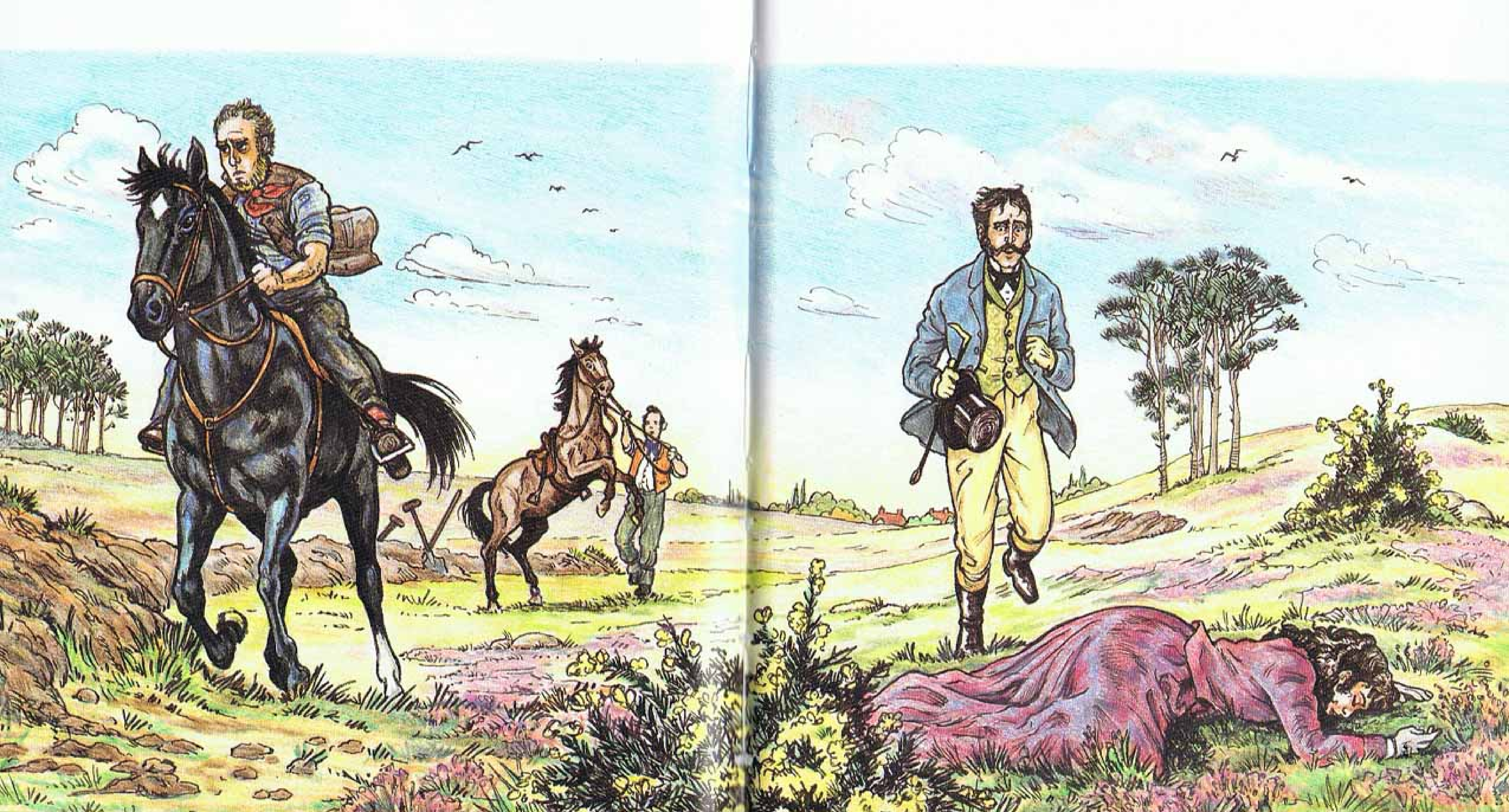
تَشَعَّبَتِ الطَّريقُ بَعْدَ نَحْوِ ميلٍ وَنِصْفِ الْميلِ. لَكِنَّ سَيِّدَةً كانَتْ تَقِفُ عِنْدَ بَوّابَةِ حَديقَتِها أَشارَتْ إلى الاِتِّجاهِ الَّذي سَلَكَتْهُ الْفَرَسُ الْجامِحَةُ.

اِسْتَمَرَّتِ الْمُطارَدَةُ طَويلًا، كانَتِ الْفَرَسُ الْجامِحَةُ في أَثْنائِها تَبْدو لَنا ثُمَّ تَعودُ فَتَخْتَفي. أَخيرًا رَأَيْناها تَقْفِزُ قَفْزَةً واسِعَةً وَتَتَعَثَّرُ، وَرَأَيْنا سَيِّدَتي الْمِسْكينَةَ تَنْقَلِبُ عَنْ ظَهْرِها وَتَقَعُ بَيْنَ النَّباتاتِ ساكِنَةً لا تَقْوى عَلى الْحَراكِ. وَكانَ في الْجِوارِ رَجُلانِ، فَأَسْرَعَ أَحَدُهُما يُمْسِكُ بِلِزي، أَمّا الْآخَرُ فَقَدْ أَرْسَلَهُ الْكولونيلُ بْلانْتايَر عَلى مَتْني طَلَبًا لِلْعَوْنِ.

وَصَلْتُ الْقَصْرَ، فَوُضِعْتُ في مَقْسَمي، وَأَسْرَعَ أَخو الْآنِسَةِ آن إلى جِنْجِر فَشَدَّ عَلَيْها السَّرْجَ وَمَضى بِها بِسُرْعَةٍ كَبيرَةٍ. وَجِنْجِر هِيَ الَّتي أَخْبَرَتْني فيما بَعْدُ أَنَّ الْآنِسَةَ آن لَمْ تَمُتْ.

في الْيَوْمِ التّالي زارَني الْكولونيلُ بْلانْتايَر. فَرَبَّتَ جَسَدي وَكالَ لِيَ الْمَديحَ لِما أَسْهَمْتُ بِهِ في إِنْقاذِ حَياةِ الْآنِسَةِ آن. وَقالَ:

«حَقُّها أَلّا تَرْكَبَ حِصانًا سِواكَ!» وَقَدْ سَرَّني أَنَّها كانَتْ في طَريقِها إلى الشِّفاءِ وَتَطَلَّعْتُ إلى أَيّامٍ سَعيدَةٍ أُخْرى مَعَها.





لكِنَّ سعادَتي لَمْ يَكُنْ مُقَدَّرًا لَها أَنْ تَطولَ. فَقَدْ كانَ كَبيرُ السُّوّاسِ، عَلى الرُّغْمِ مِنْ مَهارَتِهِ وَخِبْرَتِهِ، قَليلَ الْعِنايَةِ بِالْخَيْلِ. وَقَدْ أَهْمَلَني إِهْمالًا شَديدًا أَدّى في نِهايَةِ الْأَمْرِ إِلى سوءِ مَظْهَري وَوَهَنِ جَسَدي.

ذاتَ يَوْمٍ أَوْصَلْتُ الْكولونيلَ بْلانْتايَر إِلى مَحَطَّةِ الْقِطارِ. وَأُخِذْتُ إِلى خانٍ قَريبٍ في انْتِظارِ كَبيرِ السُّوّاسِ. كانَ في قَدَمي مِسْمارٌ مُتَخَلْخِلٌ، لكِنَّ السّائِسَ في الْخانِ لَمْ يَتَنَبَّهْ لِذٰلِكَ. ثُمَّ وَصَلَ كَبيرُ السُّوّاسِ، بَعْدَ انْتِظارٍ طَويلٍ، وَتَنَبَّهَ لِذٰلِكَ الْمِسْمارِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ بِشَأْنِهِ شَيْئًا. وَلَمْ يَسْمَحْ لِسائِسِ الْخانِ أَنْ يُصْلِحَهُ. وَوَجَدْتُ تَصَرُّفَهُ غَريبًا مُسْتَهْجَنًا.

وَلَمّا كانَ قَدْ تَأَخَّرَ في الْوُصولِ إِلَيَّ فَقَدْ راحَ يَسْتَحِثُّني عَلى الْإِسْراعِ، وَمَضى بي في أَرْضٍ وَعْرَةٍ وَمَمَرّاتٍ خَطِرَةٍ. كانَتْ قَدَمي تُؤْلِمُني وَأَخَذْتُ في جَرْيي أَعْرُجُ. فَقَدْ نَزَعَتِ الصُّخورُ نَعْلي وَمَزَّقَتْ قَدَمي. وَأَخيرًا وَقَعْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ وُقوعًا شَديدًا، وَسَقَطَ كَبيرُ السُّوّاسِ عَلى الطَّريقِ سَقْطَةً عَظيمَةً. كُنْتُ أَتَوَجَّعُ أَشَدَّ الْوَجَعِ وَأَتَأَوَّهُ، أَمّا هُوَ فَكانَ غَيْرَ بَعيدٍ عَنّي هامِدًا.

أَخيرًا جاءَ سائِسانِ مِنْ سُوّاسِ الْقَصْرِ يَبْحَثانِ عَنّا. عَرَفْتُ خُطُواتِ جِنْجِر فَصَهَلْتُ صَهْلَةً عالِيَةً. وَقَدْ وَجَدَ السّائِسانِ كَبيرَ السُّوّاسِ مَيْتًا. وَعِنْدَما رَأَيا قَدَمي وَجِراحَ رُكْبَتَيَّ فَهِما ما حَدَثَ.

قالَ أَحَدُ السّائِسَيْنِ: «لا يَفْعَلُ إِنْسانٌ عاقِلٌ ما فَعَلَهُ كَبيرُ السُّوّاسِ. إِذا كانَ الْفَرَسُ بِلا نَعْلٍ فَالسَّيْرُ فَوْقَ الْقَمَرِ أَسْهَلُ عَلَيْهِ مِنَ السَّيْرِ فَوْقَ هٰذِهِ الصُّخورِ.»

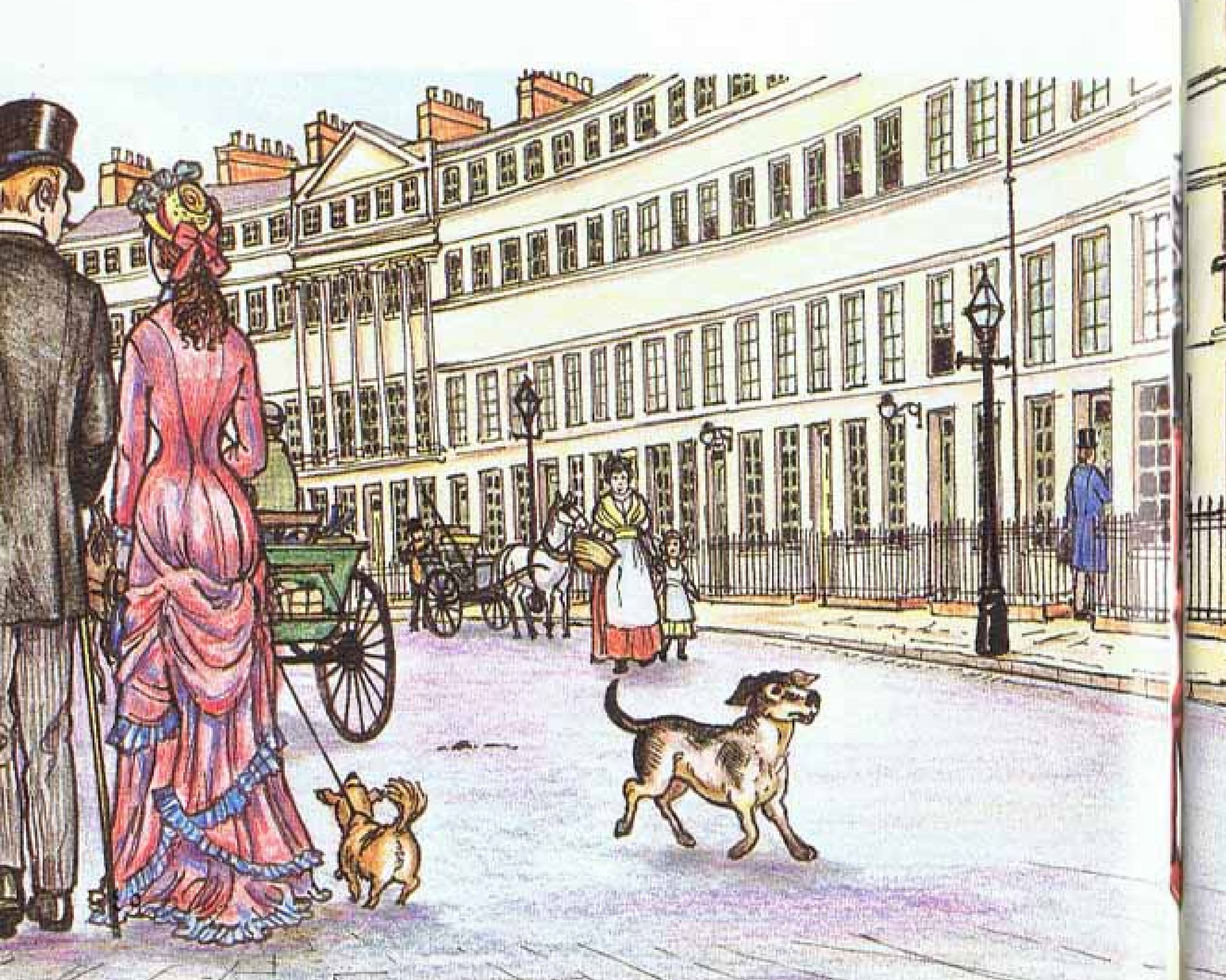
أُخِذْتُ إِلى الْمَنْزِلِ، وَعولِجْتُ إِلى أَنْ تَحَسَّنَتْ حالي. ثُمَّ تُرِكْتُ في مَرْعًى لِأَتَعافى تَعافِيًا تامًّا.

ذاتَ يَوْمٍ زارَنا في الْمَرْعى سَيِّدُ الْقَصْرِ، وَقَدْ أَحْزَنَهُ ما حَلَّ بِجَوادَيْ صَديقِهِ الْقَديمِ. وَرَأى أَنَّ حالي مُزْرِيَةٌ فَقَرَّرَ أَنْ يَبيعَني.

أَمّا جِنْجِر فَرَأى أَنْ يُبْقِيَها عِنْدَهُ سَنَةً أُخْرى لَعَلَّ الرّاحَةَ تَنْفَعُها فَتَعودَ إِلى حالِها الْأُولى.

هٰكَذا انْتَقَلْتُ إِلى مِلْكِيَّةِ رَجُلٍ في بَلْدَةٍ مُجاوِرَةٍ. وَكانَ سَيِّدي الْجَديدُ يَمْتَلِكُ جِيادًا كَثيرَةً وَعَرَباتٍ مُخْتَلِفَةً يُؤَجِّرُها. كانَتْ تِلْكَ الْعَرَباتُ يَقودُها رِجالُهُ أَحْيانًا، وَأَحْيانًا أُخْرى كانَ يَقودُها أُولٰئِكَ الَّذينَ يَسْتَأْجِرونَها مِنْ رِجالٍ وَنِساءٍ. وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ سَيِّدَنا كانَ يُحْسِنُ الْعِنايَةَ بِنا، فَإِنَّ حَياتَنا كانَتْ شاقَّةً. فَالْكَثيرونَ مِمَّنْ كانوا يَسْتَأْجِرونَنا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِشُؤونِ الْجِيادِ، وَكانوا يُهْمِلونَنا الْإِهْمالَ كُلَّهُ.

وَفي إِحْدى الْمَرّاتِ رَآني أَحَدُ الرِّجالِ أَعْرَجُ فَظَنَّ أَنّي أَتَكاسَلُ أَوْ أَحْتالُ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ حَصاةً انْغَرَزَتْ في حافِري. فَراحَ يَقودُني، عِقابًا لي، بِقَسْوَةٍ بالِغَةٍ. وَفي مَرَّةٍ أُخْرى أُصيبَ الْحِصانُ الَّذي كانَ يَجُرُّ مَعي الْعَرَبَةَ بِجُرْحٍ بَليغٍ في صَدْرِهِ، إِذِ انْدَفَعَ نَحْوَهُ سائِقٌ غِرٌّ بِعَرَبَتِهِ الَّتي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كَيْفَ يُوقِفُها.



ثُمَّ انْتَقَلْتُ إلى يَدِ مالِكٍ جَديدٍ. فَظَنَنْتُ أَنَّ حَظِّي قَدْ تَغَيَّرَ. كانَ أَحَدُ الرِّجالِ قَدِ اعْتادَ أَنْ يَسْتَأْجِرَني مِنْ مالِكي الْقَديمِ. فَنَصَحَ واحِدًا مِنْ أَصْحابِهِ اسْمُهُ السَّيِّدُ باري، أَنْ يَعْرِضَ عَلى سَيِّدي شِرائي. فَقَدْ خَبِرَني وَرَأى أَنّي جَوادٌ طَيِّعٌ مَأْمونُ الرُّكوبِ، وَهُوَ ما يَحْتاجُهُ السَّيِّدُ باري الَّذي كانَ الْأَطِبّاءُ قَدْ نَصَحوهُ بِمُمارَسَةِ هٰذا النَّوْعِ مِنَ النَّشاطِ.



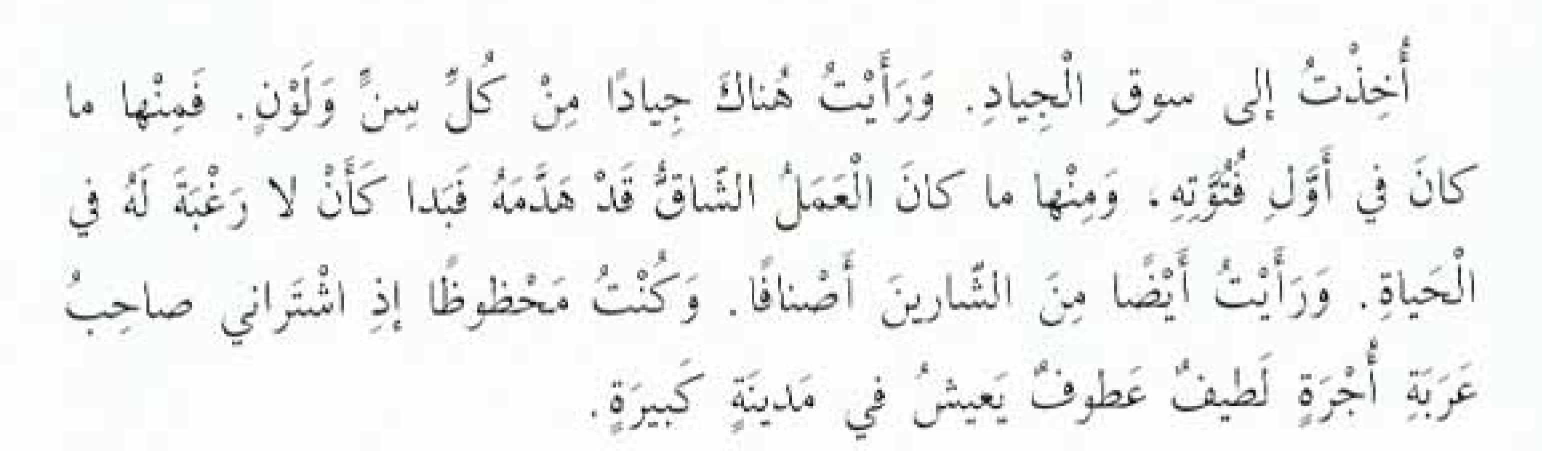
كانَ السَّيِّدُ باري رَجُلَ أَعْمالٍ. وَعَلى الرُّغْمِ مِنْ أَنَّ مَعْرِفَتَهُ بِالْخَيْلِ كانَتْ يَسيرَةً، فَإِنَّهُ بَذَلَ جَهْدَهُ لِيَعْتَنِيَ بي الْعِنايَةَ الْحَسَنَةَ. وَقَدِ اسْتَأْجَرَ إِسْطَبْلًا قَريبًا مِنْ مَنْزِلِهِ وَعَيَّنَ لي سائِسًا. وَسَمِعْتُهُ يُعْطي تَعْليماتِهِ مُشَدِّدًا عَلى غِذاءٍ كامِلٍ لي، وَتَطَلَّعْتُ إِلى وَجَباتٍ شَهِيَّةٍ وافِرَةٍ.

سارَ كُلُّ شَيْءٍ في بِدايَةِ الْأَمْرِ سَيْرًا حَسَنًا. ثُمَّ بَدَأْتُ أَفْتَقِدُ في غِذائِيَ الشّوفانَ. بَعْدَ شَهْرَيْنِ كانَتْ قُوَّتي قَدْ وَهَنَتْ كَثيرًا، وَكَذٰلِكَ عُنْفُواني.

لَمْ يَفْهَمْ سَيِّدي سِرَّ ذٰلِكَ، إِلى أَنْ رَأى واحِدٌ مِنْ أَصْحابِهِ حالي وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ أَنْ يُدَقِّقَ في نَوْعِ الْغِذاءِ الَّذي أَتَناوَلُهُ. وَكانَ أَنِ اكْتَشَفَ أَنَّ السّائِسَ يَسْرِقُ شوفاني ويَأْخُذُه إِلى زَوْجَتِهِ لِتُسَمِّنَ بِهِ الدَّجاجَ وَالْأَرانِبَ الَّتي يُعِدّانِها لِلْبَيْعِ. فَهِمْتُ فيما بَعْدُ أَنَّ الرَّجُلَ قَدِ اعْتُقِلَ وَحُبِسَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ.

لَمْ يَكُنِ السّائِسُ الَّذي حَلَّ مَحَلَّ الْأَوَّلِ أَحْسَنَ حالًا. فَقَدْ كانَ كَسولًا لا يُحافِظُ عَلى نَظافَةِ مَقْسَمي. وَغَدَتِ الْأَرْضُ تَحْتَ الطَّبَقَةِ الْعُلْيا مِنَ الْقَشِّ وَسِخَةً تَفوحُ مِنْها رَوائِحُ كَريهَةٌ. وادَّعى السّائِسُ أَنَّ تِلْكَ رَوائِحُ مَصارِفِ الْمِياهِ الْوَسِخَةِ. وَكانَ أَيْضًا أَكْسَلَ مِنْ أَنْ يُنَشِّطَني وَيَخْرُجَ بي مِنَ الْإِسْطَبْلِ عِنْدَما يَكونُ سَيِّدي مَشْغولًا. فَساءَتْ صِحَّتي وَرُحْتُ أَكْبو في جَرْيي وَأَتَعَثَّرُ. فَأَخَذَني السَّيِّدُ باري إِلى بَيْطارٍ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ قَذارَةَ الْإِسْطَبْلِ قَدْ أَفْسَدَتْ قَدَمي.

نَظَّفَ الْبَيْطارُ قَدَمي وَعالَجَها بِمَحْلولٍ قَوِيٍّ. وَفُرِكَ مَقْسَمي مِنَ الْإِسْطَبْلِ فَرْكًا. وَلٰكِنَّ سَيِّدي كانَ قَدْ قَرِفَ مِنْ مُعامَلَةِ السّائِسينَ الْغَشّاشَيْنِ وَقَرَّرَ أَلّا يَقْتَنِيَ جَوادًا.



أُخِذْتُ إلى سوقِ الْجِيادِ. وَرَأَيْتُ هُناكَ جِيادًا مِنْ كُلِّ سِنٍّ وَلَوْنٍ. فَمِنْها ما كانَ في أَوَّلِ فُتُوَّتِهِ، وَمِنْها ما كانَ الْعَمَلُ الشّاقُّ قَدْ هَدَّمَهُ فَبَدا كَأَنْ لا رَغْبَةَ لَهُ في الْحَياةِ. وَرَأَيْتُ أَيْضًا مِنَ الشّارينَ أَصْنافًا. وَكُنْتُ مَحْظوظًا إِذِ اشْتَراني صاحِبُ عَرَبَةِ أُجْرَةٍ لَطيفٌ عَطوفٌ يَعيشُ في مَدينَةٍ كَبيرَةٍ.

قادَني سَيِّدي الْجَديدُ مِنْ سوقِ الْخَيْلِ إلى مَدينَتِهِ وَوَضَعَني في إِسْطَبْلٍ مُقابِلٍ لِعَدَدٍ مِنَ الْمَنازِلِ الصَّغيرَةِ الَّتي يَعيشُ فيها أَصْحابُ الْعَرَباتِ. وَخَرَجَتْ زَوْجَةُ سَيِّدي وَابْنُهُ وَابْنَتُهُ لِاسْتِقْبالِنا.



سُرْعانَ ما اكْتَشَفْتُ أَنَّ أُسْرَةَ سَيِّدي حَسَنَةُ الْعِشْرَةِ لا يَطْمَعُ جَوادٌ أَنْ يَكونَ في أُسْرَةٍ أَلْطَفَ مِنْها. كانَ سَيِّدي سائِقًا مُمْتازًا يَعْرِفُ مُتَطَلَّباتِ جَوادِهِ. فَلَمْ يَتْرُكْني أَبَدًا دونَ ماءٍ أَوْ طَعامٍ يَكْفيني. وَكانَ يُريحُني في يَوْمِ الْعُطْلَةِ الْأُسْبوعِيَّةِ بَعْدَ عَناءِ الْعَمَلِ في سائِرِ الْأَيّامِ. وَسُرْعانَ ما تَعَوَّدْتُ عَلى ضَجيجِ الْمَدينَةِ وَصَخَبِها وَاشْتَغَلْتُ بِجِدٍّ عَظيمٍ وَبَذَلْتُ دائِمًا جَهْدي. وَلَمْ يَكُنْ سَيِّدي يُعَرِّضُني لِلْمَخاطِرِ أَوْ يُبالِغُ في إِرْهاقي، حَتّى وَلَوْ لِقاءَ أَجْرٍ إِضافِيٍّ. كانَ إِذا رَأى سائِقًا يَضْرِبُ جَوادَهُ الْمُرْهَقَ بِالسِّياطِ لِحَثِّهِ عَلى الْإِسْراعِ، يَقولُ:

«لا يا جاك، الْقِرْشُ لا يُبَرِّرُ هٰذِهِ الْمُعامَلَةَ. أَلا تَرى ذٰلِكَ، يا جَوادِيَ الْعَجوزَ؟» وَكانَ سَيِّدي قَدْ أَسْماني جاك، تَيَمُّنًا بِاسْمِ الْجَوادِ السّابِقِ الَّذي كانَتِ الْأُسْرَةُ شَديدَةَ التَّعَلُّقِ بِهِ.

لَمْ يُخالِفْ سَيِّدي الْعادَةَ الَّتي اتَّبَعَها بِأَنْ يُريحَني في يَوْمِ الْعُطْلَةِ الْأُسْبوعِيَّةِ إلّا مَرَّةً واحِدَةً. ذاتَ يَوْمٍ جاءَتْ زَوْجَتُهُ تَجْري إلى الْإِسْطَبْلِ حَيْثُ كانَ يَعْتَني بي، وَقالَتْ:

«إنَّ رَسولًا جاءَ يُبْلِغُ جارَتَنا أَنَّ أُمَّها عَلى فِراشِ الْمَوْتِ، وَأَنَّ عَلَيْها أَنْ تَمْضِيَ حالًا إذا كانَ لَها أَنْ تَرى أُمَّها حَيَّةً.»

لَمْ يَكُنْ مِنْ وَسيلَةٍ غَيْرِ الْخَيْلِ لِلْوُصولِ إلى مَنْزِلِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ. فَالْقِطارُ يَصِلُ إلى مَحَطَّةٍ تَبْعُدُ عَنْ مَنْزِلِها أَمْيالًا. وَهٰكَذا مَضَيْنا إلى ذٰلِكَ الْمَنْزِلِ الرّيفِيِّ في يَوْمٍ مُشْمِسٍ بَديعٍ مِنْ أَيّامِ الرَّبيعِ. وَكانَ عَلَيَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْ أَنْتَظِرَ في مَرْجٍ مُجاوِرٍ لِلْمَنْزِلِ.

رُحْتُ في تِلْكَ الْبَرِّيَّةِ الْفاتِنَةِ أَرْعى الْعُشْبَ وَأَتَقَلَّبُ عَلى الْأَرْضِ وَأَجْري، بَيْنَما شُغِلَ سَيِّدي بِقَطْفِ الْأَزْهارِ لِيُقَدِّمَها إلى زَوْجَتِهِ. كانَ ذٰلِكَ يَوْمًا عَظيمًا فَإِنّي لَمْ أَكُنْ قَدْ سَرَحْتُ في الْبَرِّيَّةِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. كُنْتُ يَوْمَها أَسْعَدَ الْجِيادِ.



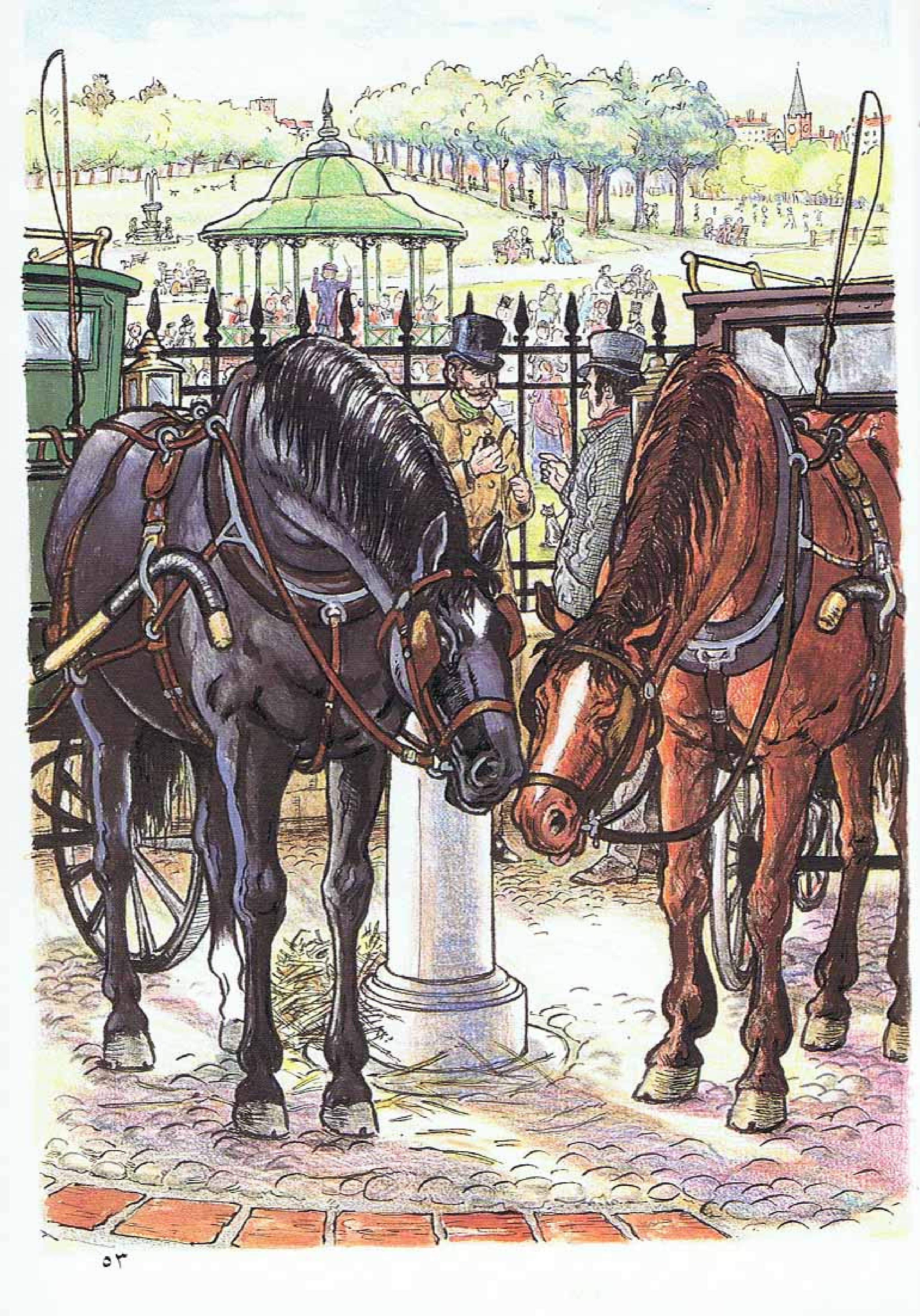
كانَ الشِّتاءُ التّالي قاسِيًا عَلى جِيادِ عَرَباتِ الْأُجْرَةِ. فَلَقَدْ ظَلَّ الطَّقْسُ الْقارِسُ أَسابيعَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ ثُلوجٍ تَتَساقَطُ وَمَطَرٍ وَرِياحٍ عاصِفَةٍ وَصَقيعٍ. وَلَمْ يَكُنْ يَمْتَلِكُ أَغْطِيَةً لِلْخَيْلِ مانِعَةً لِلْماءِ إِلّا قِلَّةٌ مِنْ سَوّاقي الْعَرَباتِ. أَمّا الْأَغْطِيَةُ الْعادِيَّةُ فَلَمْ تَكُنْ تَمْنَعُ الْبَلَلَ وَلا تَقي مِنَ الْبَرْدِ. وَكانَ بَعْضُ السَّوّاقينَ مِنَ الْفَقْرِ بِحَيْثُ كانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلوا طَوالَ النَّهارِ وَجانِبًا مِنَ اللَّيْلِ لِيُحَصِّلوا مَعيشَتَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَدْفَعوا لِأَصْحابِ الْمَحَطّاتِ الَّتي يَعْمَلونَ مِنْها أُجْرَتَهُمْ. وَكانَتْ جِيادُ هٰؤُلاءِ السَّوّاقينَ واهِنَةً مِمّا يُصيبُها مِنْ إِرْهاقٍ. أَمّا أَنا فَكُنْتُ مَحْظوظًا إِذْ كانَ صاحِبي يُعيدُني دائِمًا إِلى الْإِسْطَبْلِ بَعْدَ عَمَلِ النَّهارِ، أَوْ جانِبٍ مِنْهُ.

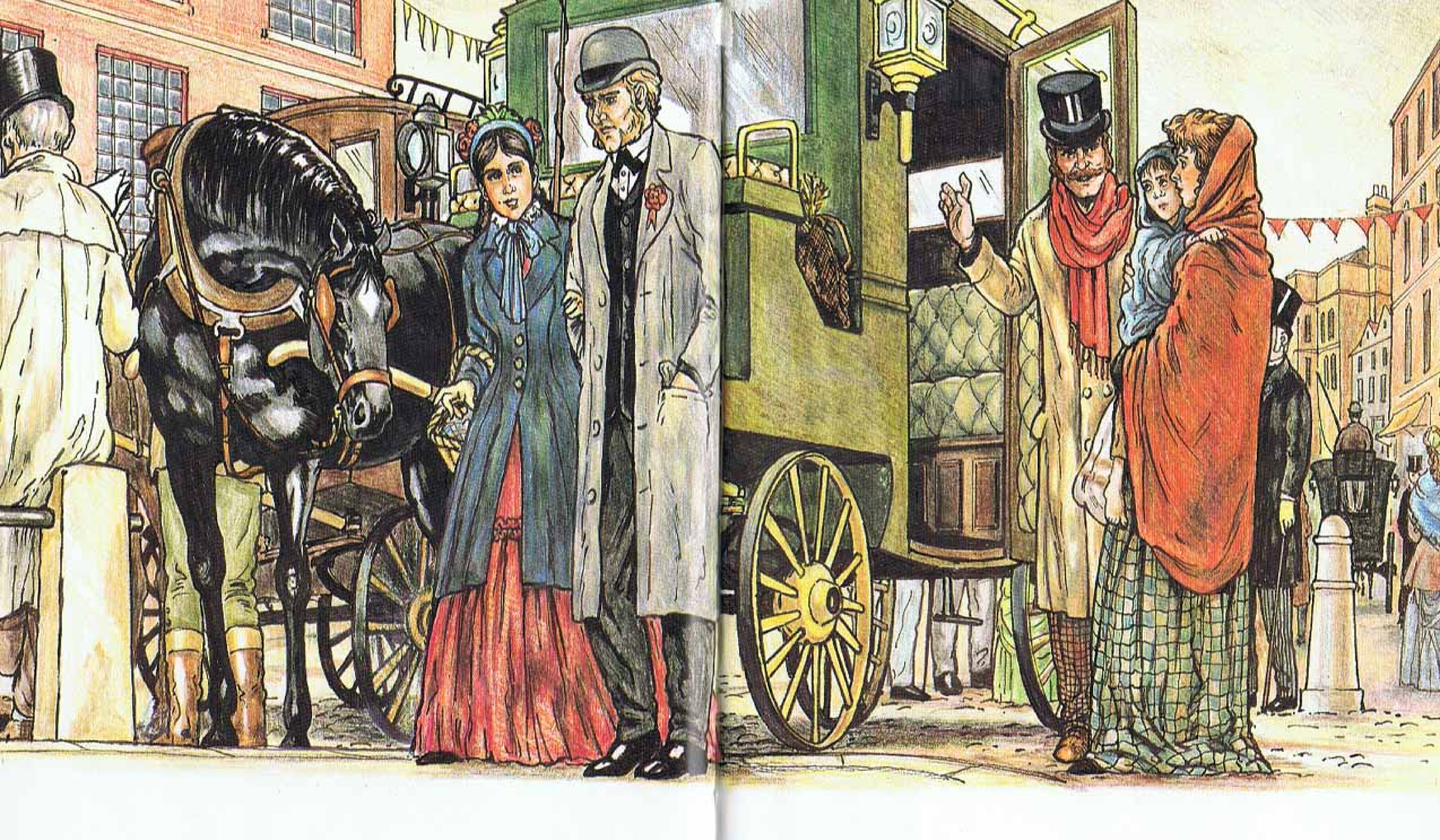
بَيْنَما كُنّا ذاتَ يَوْمٍ نَنْتَظِرُ خارِجَ أَحَدِ الْمُتَنَزَّهاتِ، وَكانَ يَنْتَظِرُ مَعَنا الْكَثيرُ مِنَ الْعَرَباتِ، وَصَلَتْ عَرَبَةٌ قَديمَةٌ كالِحَةٌ وَتَوَقَّفَتْ إِلى جانِبِ عَرَبَتِنا. كانَ يَجُرُّ تِلْكَ الْعَرَبَةَ فَرَسٌ كَسْتَنائِيَّةُ اللَّوْنِ، هَزيلَةٌ واهِنَةٌ بارِزَةُ الْعِظامِ.

عَرَفْتُ مِنْ فَوْرِيَ تِلْكَ الْفَرَسَ التَّعيسَةَ عَلى الرَّغْمِ مِنْ مَظْهَرِها الْبائِسِ، فَقَدْ كانَتْ صَديقَتي الْقَديمَةَ جِنْجِر. أُتيحَ لَنا أَنْ نَتَحَدَّثَ قَليلًا، فَأَخْبَرَتْني أَنَّ حَظَّها الْعاثِرَ أَوْصَلَها إِلى ما هِيَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ تَنَقَّلَتْ مِرارًا بَيْنَ أَيْدي مالِكينَ لَمْ يُحْسِنْ واحِدٌ مِنْهُمْ رِعايَتَها. وَقالَتْ إِنَّها باتَتْ تَتَمَنّى الْمَوْتَ لِأَنَّ فيهِ خَلاصًا لَها مِنْ آلامِها. أَحْسَسْتُ بِحُزْنٍ بالِغٍ، لٰكِنْ لَمْ يَكُنْ في يَدي حيلَةٌ تُخَفِّفُ عَنْها.

اِلْتَفَتَتْ إِلَيَّ، إِذْ أَمَرَها سائِقُها بِالتَّحَرُّكِ، وَقالَتْ: «لَمْ أَعْرِفْ في حَياتي صَديقًا غَيْرَكَ!»

رَأَيْتُ بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ عَرَبَةً تَحْمِلُ جَوادًا مَيِّتًا. قُلْتُ في نَفْسي لَعَلَّ دَعْوَةَ جِنْجِر قَدِ اسْتُجيبَتْ.





اِشْتَدَّ عَلَيْنا الْعَمَلُ في ذٰلِكَ الشِّتاءِ. وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ سَيِّدي يَتْرُكُ فُرْصَةً لِمُساعَدَةِ النّاسِ حَتّى وَلَوْ عَلى حِسابِ عَمَلِهِ. ذاتَ يَوْمٍ سَأَلَتْهُ امْرَأَةٌ بائِسَةٌ تَحْمِلُ طِفْلًا أَنْ يَدُلَّها عَلى طَريقِ الْمُسْتَشْفى. كانَ الطِّفْلُ الْمَريضُ يَبْكي. فَأَسْرَعَ سَيِّدي يَعْرِضُ عَلَيْها أَنْ يُوْصِلَها إِلى الْمُسْتَشْفى دونَ أَجْرٍ.

وَهٰكَذا مَضَيْنا بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمِسْكينَةِ وَطِفْلِها. في الطَّريقِ حَدَّثَتِ الْمَرْأَةُ سَيِّدي عَنِ ابْنِها، وَعَرَفْنا أَنَّ عُمْرَ الطِّفْلِ أَرْبَعُ سَنَواتٍ لٰكِنَّهُ لا يَقْدِرُ عَلى الْمَشْيِ، وَأَنَّهُ يَتَوَجَّعُ، وَأَنَّ الطَّبيبَ أَكَّدَ لَها أَنَّ في الْمُسْتَشْفى عِلاجًا شافِيًا. أَحْسَسْتُ بِسَعادَةٍ كَبيرَةٍ، وَعِنْدَما تَرَكَتْنا السَّيِّدَةُ سَمِعْتُها تَقولُ: «حَفِظَكَ اللّٰهُ، يا سَيِّدي!»

في طَريقِ الْعَوْدَةِ نَقَلَ صاحِبي سَيِّدَةً كانَتْ تَعْرِفُهُ وتَعْرِفُ سَيِّدَتي. في الطَّريقِ قالَتْ لَهُ: «أَراكَ مُتْعَبًا! هٰذا الْعَمَلُ الْمُرْهِقُ لَمْ يَعُدْ يُناسِبُكَ في هٰذِهِ السِّنِّ. إذا شِئْتَ عَمَلًا مُريحًا فَإِنّي أَعْرِفُ أَماكِنَ كَثيرَةً يُحْتاجُ فيها إلى مَنْ هُوَ في مِثْلِ أَمانَتِكَ وَخِبْرَتِكَ.»

لَمْ يَكُنْ سَيِّدي يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكونُ في وَقْتٍ قَريبٍ مُحْتاجًا إلى ما عَرَضَتْهُ عَلَيْهِ تِلْكَ السَّيِّدَةُ مِنْ مُساعَدَةٍ. فَلَقَدِ اضْطُرِرْنا في لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي الْأَعْيادِ إلى السَّهَرِ حَتّى ساعاتِ الصَّباحِ في انْتِظارِ بَعْضِ السّادَةِ الَّذينَ كانوا يَحْتَفِلونَ بِالْعيدِ. كُنْتُ قَدْ وَقَفْتُ في الثَّلْجِ طَويلًا حَتّى تَخَدَّرَتْ قَوائِمي. وَراحَ سَيِّدي يَسْعُلُ سُعالًا مُتَواصِلًا، وَلَمْ يَعُدْ يَقْوى عَلى الْكَلامِ. وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ مَرَضِهِ الْبالِغِ فَقَدْ حَرَصَ عَلى أَنْ يَعْتَنِيَ بي الِاعْتِناءَ اللّازِمَ قَبْلَ أَنْ يَأْوِيَ هُوَ إلى فِراشِهِ الَّذي اضْطُرَّ إلى مُلازَمَتِهِ أَيّامًا. في هٰذِهِ الْأَثْناءِ قامَ الْوِلْدانِ بِالْعِنايَةِ بي. لٰكِنْ، وَبَيْنَما كانَ سَيِّدي في طَريقِهِ إلى التَّعافي، أَخَذَتِ الْأُسْرَةُ تُفَكِّرُ بِالْعَرْضِ الَّذي قَدَّمَتْهُ تِلْكَ السَّيِّدَةُ. وَقَدْ رَأَتْ أَنَّ حَياةَ الرّيفِ الْهادِئَةَ سَتُساعِدُ عَلى اسْتِعادَةِ سَيِّدي عافِيَتَهُ كامِلَةً وَتُؤَمِّنُ لِلْأُسْرَةِ حَياةً هانِئَةً. أَحْسَسْتُ بِقَلْبي يَثْقُلُ فَسَيِّدي لا يَحْتاجُ إِلَيَّ في عَمَلِهِ الْجَديدِ في الرّيفِ، وَكانَ لا بُدَّ أَنْ أُباعَ مَرَّةً أُخْرى. عَمِلْتُ مَعَ سَيِّدي ذاكَ ثَلاثَ سَنَواتٍ عَمَلًا جادًّا، وَعَلى الرَّغْمِ مِنَ الْعِنايَةِ الَّتي تَلَقَّيْتُها. فَقَدْ أَضْعَفَتْ تِلْكَ السَّنونَ جَسَدي.

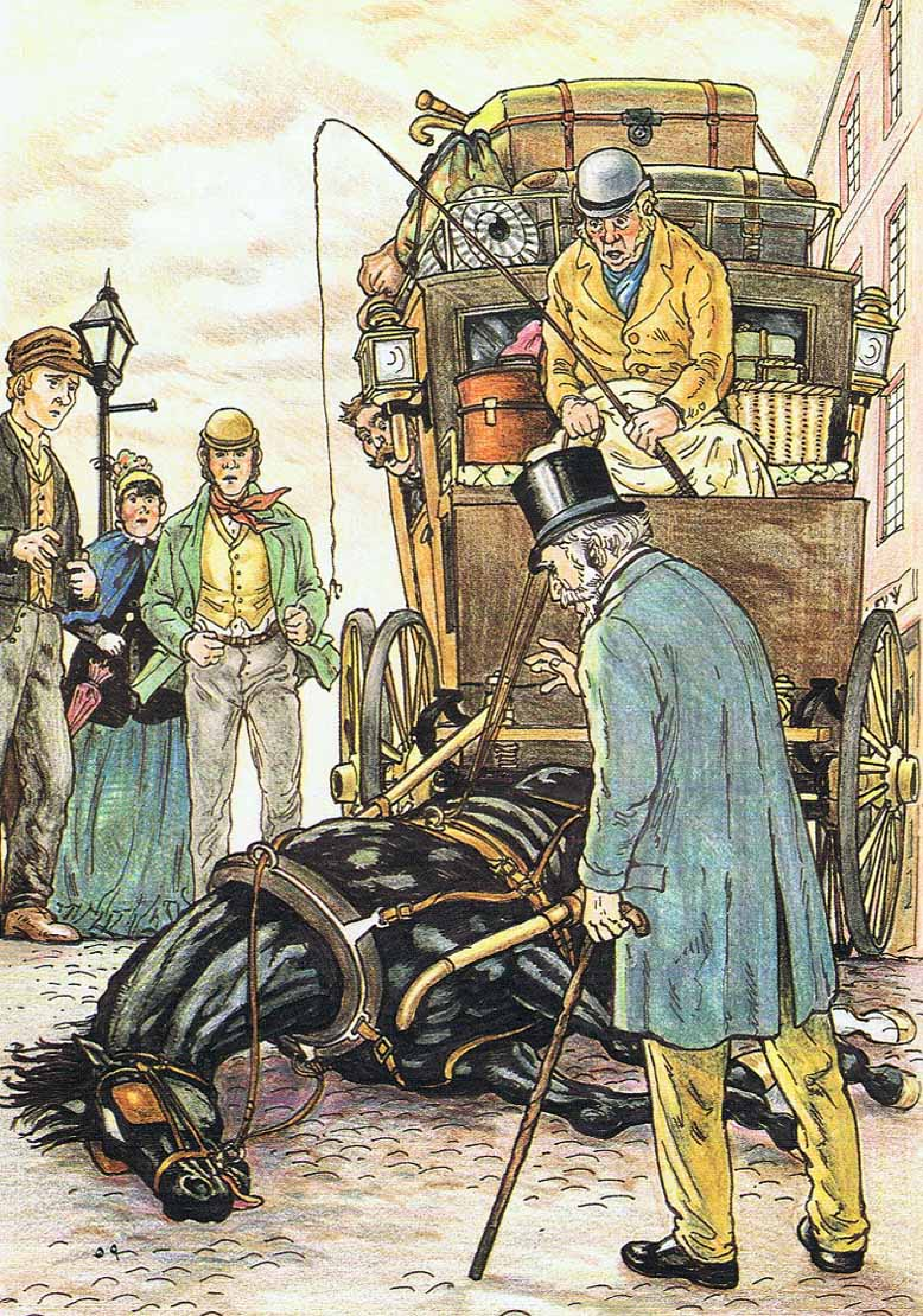


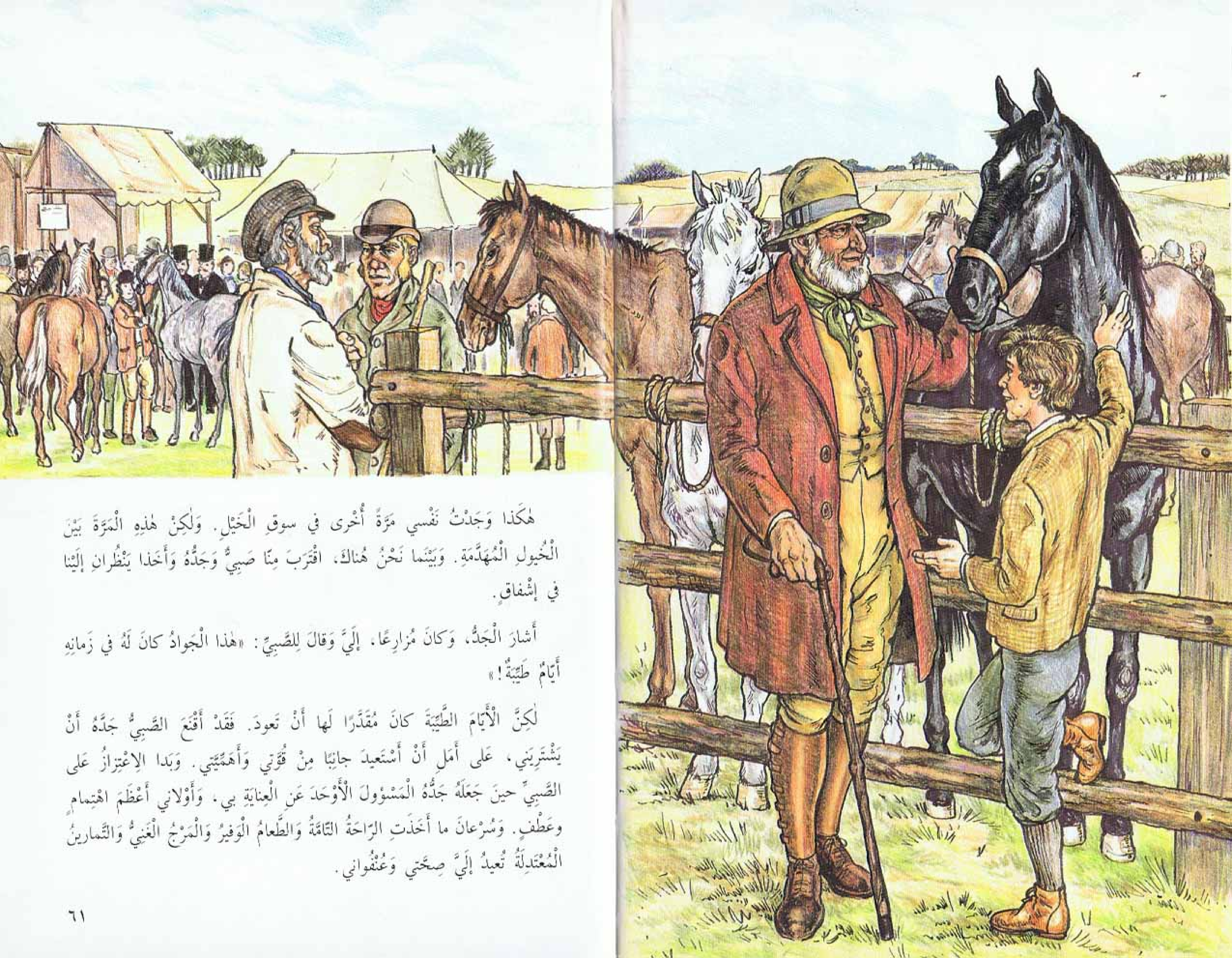
تَلا ذٰلِكَ أَيّامٌ صَعْبَةٌ. إِشْتَراني مِنْ سَيِّدي تاجِرُ قَمْحٍ وَخَبّازٌ مِنْ أَصْدِقائِهِ. وَكانَ الرَّجُلُ كَريمًا لا خَوْفَ عَلَيَّ في وُجودِهِ. وَلٰكِنْ كانَ رَئيسُ عُمّالِهِ يَنْتَهِزُ فُرْصَةَ غِيابِهِ فَيُحَمِّلُني أَثْقالًا تَقْصِمُ ظَهْرَ أَقْوى الْجِيادِ وَأَفْتاها. زادَ الْأَمْرَ سوءًا أَنَّني أُجْبِرْتُ عَلى الْقَبولِ بِالْعِنانِ الرّافِعِ مَرَّةً أُخْرى. وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ حَتّى كانَ الْعَمَلُ الْمُضْني قَدْ كَسَرَ شَوْكَتي وَالْإِضاءَةُ الضَّعيفَةُ في الْإِسْطَبْلِ قَدْ أَضْعَفَتْ عَيْنَيَّ. وَكَثيرًا ما صِرْتُ أَكْبو وَأَتَعَثَّرُ عِنْدَما أَخْرُجُ مِنَ الضَّوْءِ الْخافِتِ إِلى النّورِ السّاطِعِ.

وَمِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنّي لَمْ أُصَبْ مِنْ تِلْكَ الْوَقَعاتِ بِعاهَةٍ مُزْمِنَةٍ. لٰكِنَّ صاحِبي الْجَديدَ قَرَّرَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنّي، فَباعَني إِلى صاحِبِ عَرَباتِ أُجْرَةٍ، حَيْثُ بِتُّ أَتَوَقَّعُ أَنْ يَكونَ مَصيري مَصيرَ جِنْجِر. فَقَدْ كانَ ذٰلِكَ الرَّجُلُ ظالِمًا قاسِيًا عَلى سَوّاقيهِ، وَكانَ السَّوّاقونَ يَظْلِمونَ بِدَوْرِهِمْ خُيولَهُمْ وَيَقْسونَ عَلَيْها.

في أَحَدِ الْأَيّامِ أُرْسِلْتُ إِلى مَحَطَّةِ الْقِطارِ لِنَقْلِ أُسْرَةٍ عائِدَةٍ مِنْ سَفَرٍ. فَحُمِّلَتِ الْعَرَبَةُ بِأَثْقالٍ لا طاقَةَ لِأَيِّ جَوادٍ عَلَيْها. وَلَقَدْ بَذَلْتُ أَقْصى جَهْدي، لٰكِنَّ قَدَمي زَلَّتْ في أَثْناءِ صُعودِنا تَلَّةً، فَسَقَطْتُ سَقْطَةً عَظيمَةً أَحْسَسْتُ مَعَها بِانْقِطاعِ نَفَسي. وَارْتَمَيْتُ عَلى الْأَرْضِ عاجِزًا عَنِ الْحَراكِ.

أَسْرَعَ بَعْضُ النّاسِ يَحُلّونَ السُّيورَ الَّتي تَشُدُّني إِلى الْعَرَبَةِ، وَصَبّوا عَلَيَّ دَلْوًا مِنَ الْماءِ. أَخيرًا تَمَكَّنْتُ مِنَ النُّهوضِ، ثُمَّ اقْتادَني بَعْضُهُمْ إِلى إِسْطَبْلٍ قَريبٍ. كُنْتُ في الْمَساءِ قَدِ اسْتَعَدْتُ بَعْضَ قُوايَ فَأُخِذْتُ إِلى إِسْطَبْلِ سَيِّدي صاحِبِ الْعَرَباتِ. وَفَهِمْتُ أَنَّ سَيِّدي يُفَكِّرُ في ذَبْحي لِيَسْتَفيدَ مِنْ لَحْمي وَجِلْدي. ثُمَّ إِنَّهُ أَقْلَعَ عَنْ ذٰلِكَ لِأَنَّهُ رَأى أَنَّهُ يُحَصِّلُ في ذاكَ مِنَ الْمالِ أَقَلَّ مِمّا يُحَصِّلُ إِذا ما هُوَ باعَني في سوقِ الْخَيْلِ.





هٰكَذا وَجَدْتُ نَفْسي مَرَّةً أُخْرى في سوقِ الْخَيْلِ. وَلٰكِنْ هٰذِهِ الْمَرَّةَ بَيْنَ الْخُيولِ الْمُهَدَّمَةِ. وَبَيْنَما نَحْنُ هُناكَ، اقْتَرَبَ مِنّا صَبِيٌّ وَجَدُّهُ وَأَخَذا يَنْظُرانِ إِلَيْنا في إِشْفاقٍ.

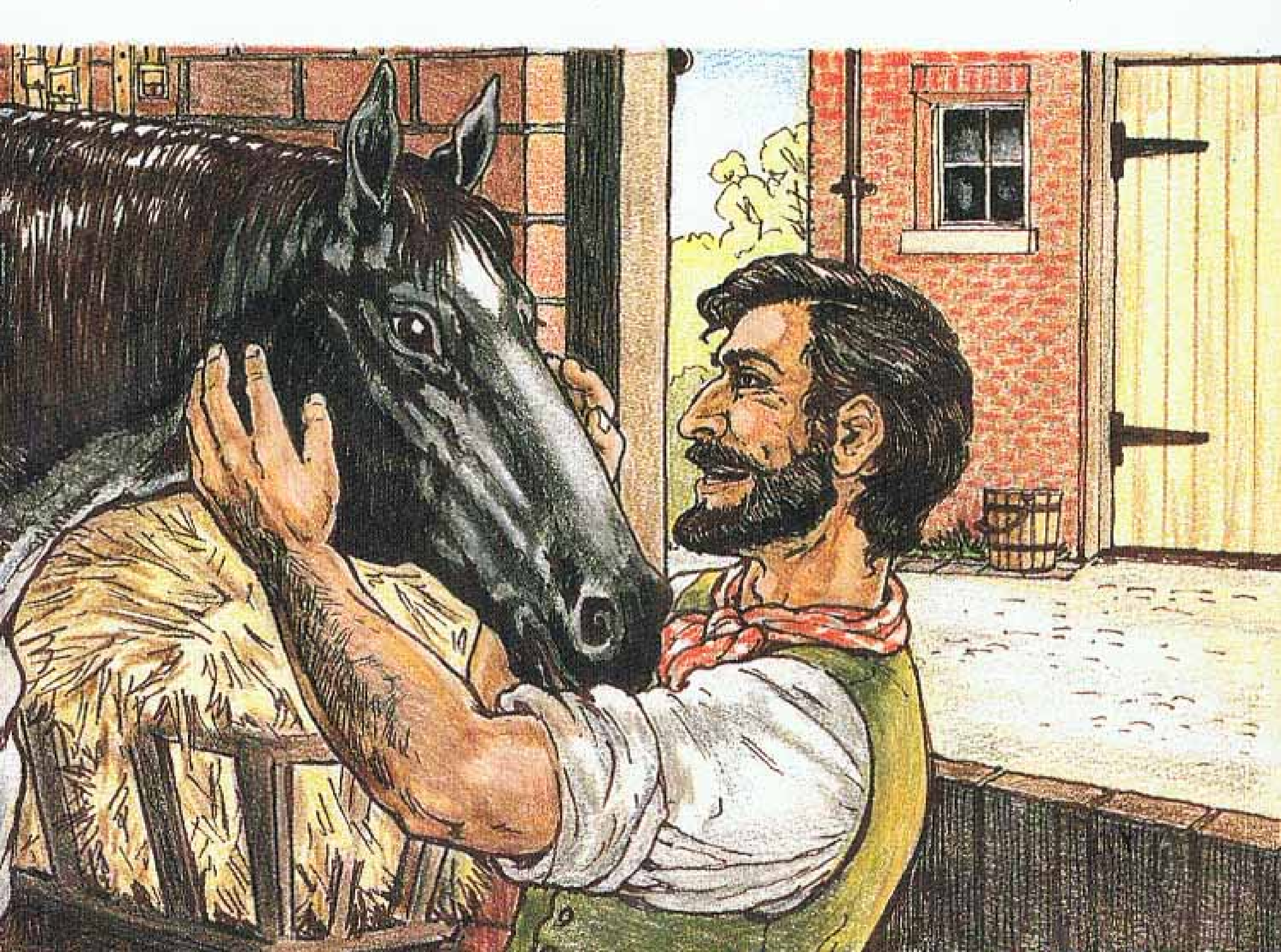
أَشارَ الْجَدُّ، وَكانَ مُزارِعًا، إِلَيَّ وَقالَ لِلصَّبِيِّ: «هٰذا الْجَوادُ كانَ لَهُ في زَمانِهِ أَيّامٌ طَيِّبَةٌ!»

لٰكِنَّ الْأَيّامَ الطَّيِّبَةَ كانَ مُقَدَّرًا لَها أَنْ تَعودَ. فَقَدْ أَقْنَعَ الصَّبِيُّ جَدَّهُ أَنْ يَشْتَرِيَني، عَلى أَمَلِ أَنْ أَسْتَعيدَ جانِبًا مِنْ قُوَّتي وَأَهَمِّيَّتي. وَبَدا الِاعْتِزازُ عَلى الصَّبِيِّ حينَ جَعَلَهُ جَدُّهُ الْمَسْؤولَ الْأَوْحَدَ عَنِ الْعِنايَةِ بي. وَأَوْلاني أَعْظَمَ اهْتِمامٍ وَعَطْفٍ. وَسُرْعانَ ما أَخَذَتِ الرّاحَةُ التّامَّةُ وَالطَّعامُ الْوَفيرُ وَالْمَرْجُ الْغَنِيُّ وَالتَّمارينُ الْمُعْتَدِلَةُ تُعيدُ إِلَيَّ صِحَّتي وَعُنْفُواني.

بَعْدَ نَحْوِ عامٍ ، زَكّاني الْجَدُّ عِنْدَ ثَلاثِ سَيِّداتٍ يَعِشْنَ في تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ مِنَ الرّيفِ. رَضِيَتِ السَّيِّداتُ أَنْ يَشْتَرِيْنَني، عَلى أَنْ أَخْضَعَ لِمَرْحَلَةِ اخْتِبارٍ. عِنْدَما جاءَ السّائِسُ لِاسْتِلامي بَدا عَلَيْهِ الْكَدَرُ، فَلَمْ يُعْجِبْهُ مَنْظَري وَخُصوصًا آثارَ الْجِراحِ الَّتي تُشَوِّهُ رُكْبَتَيَّ.

أَخَذَني السّائِسُ إلى إِسْطَبْلِهِ، وَبَدَأَ يَعْتَني بي. فَجْأَةً وَقَفَ يُحَدِّقُ بي وَيَتَفَحَّصُني ثُمَّ صاحَ: «غُرَّةٌ نَجْمِيَّةٌ بَيْضاءُ فَوْقَ الْجَبْهَةِ، وَساقٌ بَيْضاءُ! أَنْتَ بْلاك بْيوتي! أَتَتَذَكَّرُني؟ أَنا لِتِل جو الَّذي كِدْتُ أَقْتُلُكَ بِجَهْلي!» وَراحَ يُرَبِّتُ جَسَدي وَقَدْ غَمَرَهُ فَرَحٌ عَظيمٌ.

يَسُرُّني أَنْ أَذْكُرَ أَنَّ السَّيِّداتِ الثَّلاثَ أَحْبَبْنَني أَيْضًا. وَأَنا أَعيشُ في هٰذا الْبَيْتِ مُنْذُ عامٍ في سَعادَةٍ غامِرَةٍ. وَقَدْ وَعَدَتْ سَيِّداتي أَلّا يَبِعْنَني أَبَدًا، فَزالَ عَنّي كُلُّ خَوْفٍ. بَلْ قَدْ وافَقَتِ السَّيِّداتُ سائِسي لِتِل جو عَلى أَنْ يُعادَ إِلَيَّ اسْمِيَ الْقَديمُ بْلاك بْيوتي.



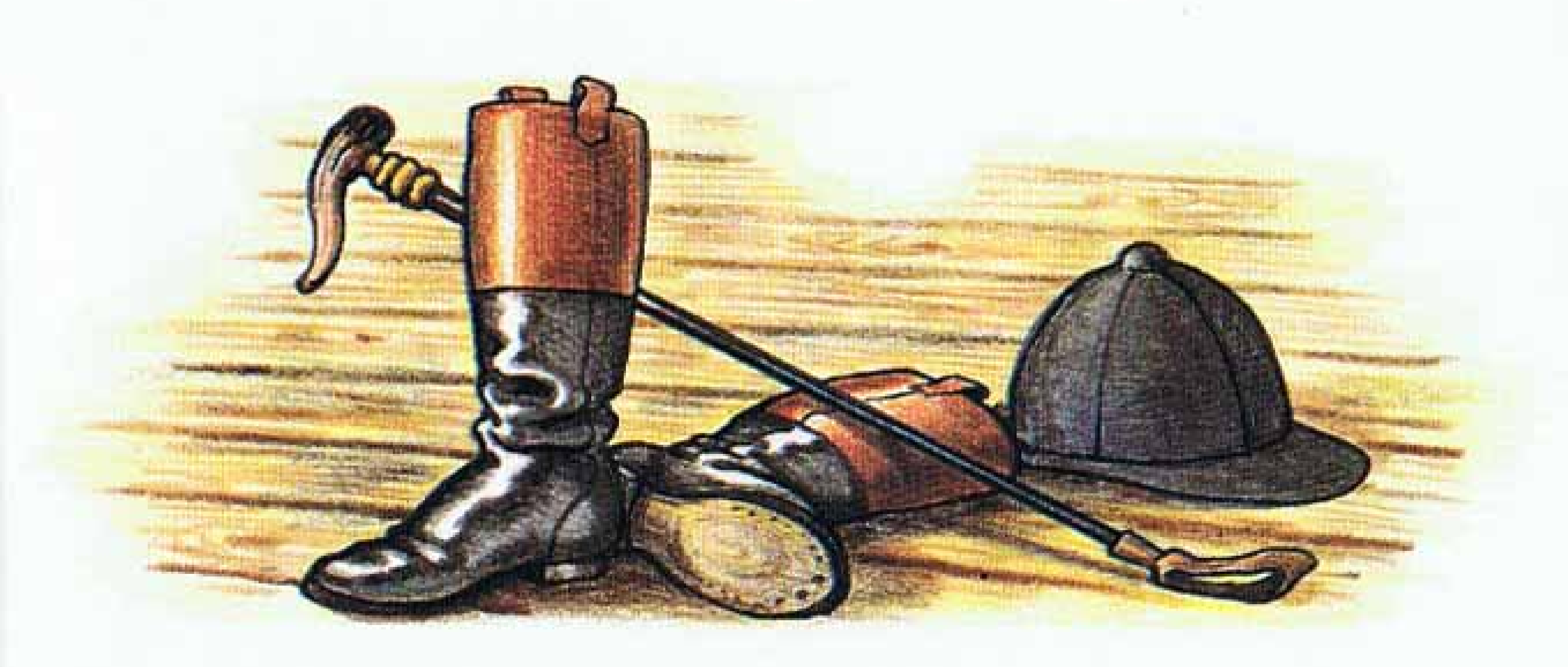


آنَا سِوِل

عاشَتْ آنَا حَياةً هادِئَةً. وُلِدتْ في يارْماوْث في إنْجِلْترا، في الْعامِ ١٨٢٠. كانَتْ أُمُّها شاعِرَةً مُتَدَيِّنَةً، أَشْرَفَتْ بِنَفْسِها على تَعْليمِ ابْنَتِها الطِّفْلَةِ، وَتَرَكَتْ فيها أَثَرًا بالِغًا. فَكانَ أَنْ نَشَأَتِ الْفَتاةُ، كَأُمِّها، مُتَدَيِّنَةً مُحِبَّةً لِلأَدَبِ.

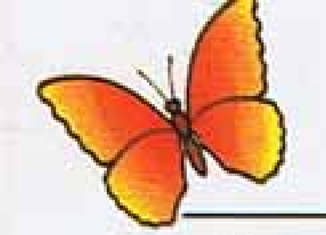
أُصيبَتْ آنَا في صِغَرِها بِحادِثَةٍ أَعْطَبَتْ ساقَها فَاضْطُرَّتْ إلى تَرْكِ الْمَدْرَسَةِ. لٰكِنَّها كانَتْ لا تَزالُ، مِنْ حُسْنِ الْحَظِّ، قادِرَةً على رُكوبِ الْخَيْلِ. وَكانَ ذٰلِكَ مَصْدَرَ سَعادَةٍ لَها. وَبِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ قادِرَةً عَلى الْمَشْيِ بِغَيْرِ عَوْنٍ، فَقَدْ كانَتْ بارِعَةً في رُكوبِ الْخَيْلِ وَقِيادَةِ الْعَرَباتِ، تُعامِلُ الْجِيادَ بِرِفْقٍ وَمَحَبَّةٍ، حَتّى قيلَ إِنَّها كانَتْ تُؤْثِرُ مُخاطَبَةَ الْخَيْلِ وَالتَّوَدُّدَ إِلَيْها عَلى اسْتِخْدامِ الْعِنانِ.

ومَعَ الْأَيّامِ أَخَذَتْ صِحَّتُها تَسوءُ. وَعِنْدَما بَلَغَتِ الْخَمْسينَ كانَ عَلَيْها أَنْ تُلازِمَ المَنْزِلَ. في هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ كَتَبَتْ **بْلاك بيوتي** مُسْتَفيدَةً مِنْ مَعْرِفَتِها الْواسِعَةِ بِالْخَيْلِ وَمُتَّخِذَةً خُيولًا عَرَفَتْها، شَخْصِيّاتٍ في كِتابِها. وَفي **٢٥** نيسانَ (إِبْريلَ) مِنْ عامِ ١٨٧٨ ماتَتْ آنّا بَعْدَ أَشْهُرٍ قَليلَةٍ مِنْ ظُهورِ كِتابِها في الْأَسْواقِ.



كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليڤَر تْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْڤيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣ - حَوْلَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤ - رِحْلَة إلى قَلْب الأرض
١٥ - كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦ - سايْلس مارْنَر
١٧ - شيرْلي
١٨ - رِحلات غاليڤر
١٩ - بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠ - مُغامَرات هاكِلْبري فين
٢١ - ديڤيد كوپرفيلد
٢٢ - البيت المُوْحِش (بْليك هاوْس)
٢٣ - المهر الأسود (بْلاك بْيُوتي)
٢٤ - جين إير
٢٥ - روبنسون كروزو
٢٦ - جزيرة الكنز
٢٧ - مرتفعات وَذَرِنغْ
٢٨ - الأمير والفقير
٢٩ - توم براون في المدرسة



كتب الفراشة

القصص العالميّة ٢٣. المُهْرُ الأَسْوَد - بْلاك بْيُوتي

قصّة جواد وديع شُجاع، ومن خلاله قصّة الحياة القاسية والأخطار التي كانت تعيشها الجياد في زمن الرواية. إلّا أنّ الكتاب ليس تسجيلًا لأوضاع كانت سائدة فحسب، بل هو أيضًا قصّةُ أحداثٍ مشوّقة مثيرة، قصّة بطولات وتضحيات، جعلت هذا الكتاب منذ نشره قبل أكثر من قرن، وحتّى اليوم، من الكتب المحبّبة عند الكبار والصغار على السواء، حتّى اتُّخذت مادّتُه أفلامًا سينمائيّة ومسلسلات تلفزيونيّة.



مَكتبة لبنان ناشِرون

